فاروق أوهان

البحر يغرق

قصص



البحر يغرق

مجموعة قصص

البحر يغرق

مجموعة قصص

الكتاب : البحـــر يغـــرق
مجموعة قصص

المؤلف : فـــاروق أوهـــــان

الناشر : مركز الحضـارة العربيـة

الطبعة الأولى
أكتوبر ٢٠٠٠

رقم الإيداع : ١٦٣٣٤/ ٢٠٠٠
الترقيم الدولى I.S.B.N.977-291-251-1

تصميم الغـلاف : محمـود الهنـدى
جرافيـــــك : أرت سمــــــارت

الجمع والصف الإلكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
إخراج فنى : د. يحيى عبد الظاهر
تصحيح : زكـــريــا منتصر

د. فاروق أوهان



مجموعة قصص





- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

إلى كل من عرف من البحر ولم يرتو

جذع النخلة

على ضفاف النـهر جمّـع يوسـف النجّـار جـذوع أشـجار متنوعـة الثمـر، عازمًا أن تكون هي مركبتـه التـي تنقلـه علـى طوفـها إلـى العـالم هربـاً مـن طوفان الشرّ من حوله . ولذا فقد أسماه العسس بنوح العصر، رغم اختلافات في التفاصيل، فالرجل أطرش، وأولاده السبعة خرس، وزوجته عميـاء، وقـد اعتنى يوسف هنا بتجميع مـا يحتاجـه لرحلتـه مـن العائلـة النباتيـة بـدلاً عـن العائلة الحيوانية، عكس ما فعل نوح التاريخ، وحـرص أن تكـون مـن سـبعة أنواع على الأقل، وفي مقدمتها شجرة من عائلة اللوزيات لكي تكون مصدراً هاماً لتقوية العظام، ومعالجة المعدة، وزيادة الدهـون عنـد الحاجـة، وأخـرى مـن عائلـة العفصيـات لعلاجـات كثـيرة أهمـها المعـدة، وثالثـــة مـــن عائلـــة المشمشيات لإغنـاء الـدم، وشـجرة زيتـون، وشـجرة تيـن، وشـجرة رمّـــان، وأخيراً، وليس آخرًا شجرة من عائلة الكروم التـي لا يمكـن الاسـتغناء عنـها في أية مائدة، ولقد تساءل بعض المتحذلقين : لماذا يجمع يوسف النجار فقـط هذه الأشجار، بينما هنـاك أشـجار كثـيرة فـي العـالم لـم ينبـه إليـها . وأهمـها النخيل ؟! لكن يوسف لا يمكن له أن يجمع شيئا خارج بيتـه، ولا تطالـه يـداه في بيئته حتى ولو كان النخيل نفسه، لإذ ربما يلقاها هي أول شجرة فـــي أول تطوافه، وعند أولى محطات غربته .

لهذا لم يبن يوسف فلكاً، وإنما عمل علـى وسـيلة أسـهل للانحـدار جنوبـاً باتجاه التيار، ألا وهو الطوف "الكلك*" العائم، ولم يكن الرجل بحاجـة لنقـل هذه العائلة النباتية إلا لأن عائلته التي تتشكل من امرأته وسبعة بنيـن وجنيـن في الشهر الخامس نباتيون مثله، وكل منهم عائلة نباتية سوف يختص بتنميـة عائلة منها . وقد قام الرجل بجمع الجذوع سرا بحجة استنباتها فـي مزرعـة جديدة للحاكم الصارم، لهذا بنى سوراً وهمياً حول الطوف من بقايا الأشـجار

التي لن يأخذها معه، بينما حرص على تقليم الأشجار الهامة، ولم ينس أن يحتفظ ببراعم من عدة أصناف للعائلة النباتية الواحدة، وزّعها على الأولاد كل حسب رغبته، فما أن تستقر بهم أرض، ويزرع الأشجار، ويقوم بتطعيم كل شجرة بعدة أصناف من نفس العائلة التي يحملها كل ولد من أولاده، وبذلك يختصر الكثير من الجهد، والتنقل . ولكن التوأم اللذين كانا يقلدان أباهما في كل شيء يقوم به حاولا عمل نموذج مصغر على الأرض للطوف الذي يبنيه أبوهما . فقد كان التوأم الكبير يؤشر على الأرض والآخر يقوم بالحفر بفأس "القدّوم*" الذي يستخدمه الكلّ حتى أمهما، وفيما هما منهمكان باللعبة المسلية، يهوي الصغير بضربة غير موفقة على رأس توأمه الأكبر فيجرح رأسه عرضياً، وتتطاير نافورة من الدماء، ولا يعرف أن التوأم الأكبر قد فعل بأخيه نفس ما حدث له لا إرادياً . ويخاف كلاهما من العقاب، فيهربان في عمق البستان، وقد تجردا من هواجسهما، وخوفهما من غيلان البساتين، غير أن المضمّد يجدهما صدفة فيقوم بمداوتهما ويعجب من كيفية جرح أحدهما للآخر في نفس المكان . ولم يعرف المضمّد وقتها أن الجرح قد تفجّر لدى التوأم الصغير لحاله تلقائياً من فعل تصور شدة الألم والذنب غير المقصود، لتماثل التوأم في ردود أفعالهما، وحركاتهما . وتقلق الأم وهي تقوم بسلق وجبة القرع الأحمر الطازج، وقد جهزّت العسل لتضعه فوق القرع المسلوق حالما يطلبانه . لكن رائحة دم ساخن فاحت في مناخيرها، فسمعت حفيف قدوم التوأم مع زائر علقت روائح الضماد، واليود الحارق بثيابه، فتسارع الأم بالوقوف أمام أقرب شانة نحل، وتملأ طاسة فخارية بما يجود به النحل لأولادها غير مبالية ولا خائفة من لسعات محتملة من إبر النحل ويبدو أن النحل نفسه لا يبالي هو الآخر بالتعدي على قوت اليرقات ما دام بستان يوسف النجّار تحت تصرفه . وتجلس الأم لتسمع كلام المضمّد المتعجّب، ومسعاه لتضميد التوأم وهي تضيّفه مسلوق القرع الأحمر المطبوخ بالعسل، وهي تسمع بعينيها إشارات المضمد وهو يصف الجرحين .

وكم تعجب العسس من تفاهم يوسف النجّار الأطرش مع أبنائه الخرس، وزوجته العمياء، وكانوا يعزون ذلك لتوحد العاهات، على قاسم مشترك . أما ما كان يعيق يوسف أكثر من التفاهم مع عائلته، هو كيفية جمع الأجواد التي سوف تحمل الطوف الذي سينحدر به فوق أمواج النهر العظيم في موسم الفيضان الكبير، فكل جود يمثل دابة تسلخ بعناية، وعليه أن يوصي القصّاب* بذلك مسبقا، وعليه أن يكون حذراً، ويلح على شراء الأجواد خارج الاستعمال الضروري للحياة اليومية، فعيون العسس ترصد كل شيء، حتى أن كل فرد كان يشعر بأن عيونا جوانية من عيون العسس قد نبتت بداخله، وخاف أن يبوح بهذا الشعور لأي مخلوق خوفا من أن يتصوره معتوها . أو مغرما بالعيون العسسية، "لكن يوسف فهم بعد فوات الآوان أن امرأته هي الآخرى قد نبتت لها عيون مشابهة، رغم أنها بصيرة، وربما تكون قد عزت ذلك لعيون العميان الداخلية، لكنها عجبت هي الأخرى بشكل يثير الاستغراب لأن جاراتها كلهن كن يتباهين باختلاف مواصفات عيون العسس الجوانية التي نبتت لهن وفيهن، فصرن عسسيات بعضهن على بعض من دون داع، ولا إرادة، يراقبن الأنا بالهي فيهن من دون داع، مما يخلق لهن مشاكل كثيرة في تفهم كثير من الأمور التي لا تستعصي على طفل بريء .

وقد علم يوسف بإشاعات عسسية أشاعها بعض المتشككين الذين يؤكدون على أن عائلة يوسف النجار تتصنع وجود العاهات لديها . أو ربما افتعلت العائلة لبس هذه العاهات هروبا من الأسئلة العسسية، والتحقيقات السرية التي تطال الكثيرين من قريب أو بعيد . ولا غرابة في حصول هذه الحالة في بيئة تمركزت فيها العيون العسسية داخل الناس، وصاروا يحصون حركات أنفسهم على أنفسهم، وكم من تقرير سري رفع عن يوسف وعائلته، يبين بشتى التلميحات، والتأكيدات على عكس ما هي عليه عاهات أفراد عائلة يوسف النجار . فمن الناس من يحكي بأن العائلة عندما تجتمع في الليل، تحت سقف بيتها، فإنهم يسمعون ضحكات الأولاد، وهم يهمسون

لوالدهم الذي يجيب في الحال من غير إعاقة يصطنعها أمام الناس في الـرد، والسمع . أما الأم فإنها تتباهى في وصف ألوان ملابس أولادها التي غسـلتها في النهار، ونشرتها تحت أشعة الشـمس التـي تتخلل أشجار التـوت الداكنـة الخضرة، وقـد طـارت النحـلات النشيطـة، والفراشـات الزاهيـة لتحـط علـى أزهار النرجس الصفراء، وزهور الليلك البنفسـجية، وورد الجـوري بألوانـه المختلفة .

لهذا كله لم يكن من صالح يوسف الانتظار، إلا لانتهاز الوقت المناسب لأمور يستوجبها التحضير، فالأجواد ستكون أقـوى علـى التحمـل فـي موسـم الربيع هذا، بعد أن يكون قد مـرّ عليـها أكـثر مـن ربيـع، فصـارت مساماتها أضيق لامتصاصها الماء والرطوبة في الخريف والشـتاء . وصـارت قـادرة على مقاومة التنفيس تحـت ثقـل الجـذوع النباتيـة، إضافـة للجـذوع الإنسـانية التسعة والنصف من عائلـة يوسـف النجّـار، إذا مـا حسـب الجنيـن فـي بطـن زوجته . أما جذوع الأشجار فقـد نمـت فـي نهاياتـها جـذور تشـرّبت بالميـاه، يمكن أن تنمو في أية أرض تستنبت فيها .

لكن الخوف هو من انكشاف سر الهرب الكبير .. وأعين العسس السـرية في كل مكان حتى في داخل قلوب الناس، وأحلامهم . وفجأة لمعت فكرة فـي بال يوسف النجار، استوحاها من محصول القرع "الصلاحي" شبيه الجرة"، الذي كان قد قطفـه يومـها ليبيعـه قبـل رحيلـه، هـذا القـرع الـذي يقـوم أبنـاء منطقته بتجفيف المتبقي من محصوله، وفتحه من العنق لكي يستخدم كجـرار لجلب المياه . أو خزن الغلال فيها . أما لو تركـت القرعـة الجافـة مـن غـير فتح العنق، فإنها لو غمرت في الماء فإنها تطفو كما يطفو الـزورق، والقفـة، والجود، فما كان من يوسـف إلا أن جمـع أكـبر عـدد ممكـن مـن هـذا القـرع ليعوض النقص في الأجواد، وبسرعة لم يتصورها أحد . ولم يدر أحـد حتـى يوسف النجار نفسه كيف تهيأ له حـل ربطـة الطـوف، والانحـدار مـع التيـار بعائلته الذكورية المتشـكلة منـه ومـن أبنائـه السـبعة . وزوجـة هـي أم أولاده تحمل لهم في أحشائها جنينا يتمناه الجميع أن يكون أختا .

وبما أن موسم الفيضان يجعل النهر العظيم يجرف غرائب الأمور فإن العسس أنفسهم قد اعتادوا على تلك المناظر، ولم يبالوا عندما مرّ طوف يوسف النجّار، وعائلته من أمامهم، فتصوروها إحدى الكتل الغريبة التي تجرفها تيارات فيضان النهر . ولكن الغرائب التي يجلبها فيضان النهر في كل ربيع هائج، لم تكن هذه المرّة لتساعد يوسف من التمويه الابتدائي للهرب. إن الغرائب التي يجرفها تيار الفيضان تجري بعنفوان وحشي .. فتحطّم بعضها بعضاً، وتتراكم فوق بعضها، حتى أنها تتجمع ككتل ضخمة في بعض المعابر الضيقة، وتكون في هذه الحالة أخطر، لأنه ما أن يزداد ضغط المياه الجارفة حتى تخرّب المضايق . أو تهوي من أعلى منحدر لتحطّم ما تحتها، وما فيه من أشياء هشة تعلقت به . لهذا وبخبرته العميقة كان يوسف يتحاشى هذه الكتل، ويتلاعب مع التيارات بحرص وفطنة، يسعى لأن يكون كل أولاده متعاونين في رسم الجهات، وبخاصة الأربعة الكبار منهم . أما الثلاثة الآخرون فقد حرص على أن يكونوا في الوسط لحماية أمهم الحامل، وكم تمنى يوسف أن يكون الخامس فيهم على الأقل بنتاً، لكانت الآن خير عون لأمها، وسنداً لأخويها الصغيرين .. واستبعد شراً تطيّره في ذاته، أن تكون البنت ضريرة مثل أمها، لا يهم إن كانت خرساء أو طرشاء فالأمر أهون . ولكنه عاد ليؤكد قدرات زوجته الخارقة، أليست هي القائمة على إدارة أمور ثمانية من الذكور بكل ما يطلبونه ..

وفطن لأولاده السبعة فما كان له وللعدد سبعة لولا إلحاحه المستديم في كل حمل أن تأتيه بنت تعين زوجته ! لهذا جاء أحدهم في أول السنة، والثاني في نهاية السنة . ولم يطل الوقت بيوسف وطوفه في الانحدار حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ فاجأت الطوف كتلة ضخمة من الركام المتدفق بسرعة فخضّته بعنف، في لمح بصر، ولم ينتبه يوسف إلى أن الكتلة اقتلعت كالمغناطيس ولديه المراقبين على الجهة اليمنى للطوف، فيراهما ويسمع إشارات الاستغاثة في عينيهما وهما يطلقانها بتلويحاتهما، وقد ابتعد الطوف عنهما بسرعة هائلة، بينما تعلقا بالكتلة وكأنهما طيور مهاجرة ترحل بعيداً

ولكنها مسلوبة الارادة . فيحار يوسف بين إدارة أمور الدّفة، لتفادي اختلال الطوف، وبين القيام بأية محاولة لإنقاذهما مهما فكرّ بعدم الجدوى، لفوات الأوان، ولكن جريان النهر أسرع من الوقت، أسرع من مرور تيارات النجوم، ونيازكها فابتعدت المسافة، واختفت الكتلة بما فيها، وتلاشت تلويحات الولدين .. وليس على الأم التي ترى بعينها الجوانية، إلا أن تهدأ، وتصبر وهي تفقد أول اثنين من أطفالها ..

وفي هذا الخضم ليس هناك وقت للتفكير، فعلى الجهة اليمنى للطوف مأزق، فإما أن يذهب أحد الولدين إلى الجهة اليسرى للتعويض أو يستعين بالابنين الآخرين للمحافظة على توازن الطوف، ولكنهما أصغر من أن يستطيعا ذلك، لهذا قام الثلاثة بمقام المفقودين الكبيرين بسرعة البرق، ودونما تردد، وكأنما زرعت فيهم قوى ثلاثة رجال . وتبقى الأم لوحدها في الوسط تلوب، ولا تعلم ما الجهة التي عليها مراقبتها بأذنيها وعينها الجوانية، للتأكد من وجود أطفالها عليها، ودموعها تغطي وجهها، في قلق، وهياج، وحيوية مسلوبة . وتتنصت الأم بكل ما فيها من سمع إلى كل ما يمرّ حولها لعلها تحس بأحد ولديها المخطوفين أو كليهما، فربما يمر الطوف على مكان يكون الصبيان قد تعلقا فيه بحافة لها نتوء بارز من الأشجار، وفروعها . لكن ما حدث هو العكس فقد فاجأ الطوف تيار جارف من جهة اليسار، وبغتة لم تطل حتى اختفى الصبيان الكبيران الآخران، دون أن يكون هناك وقت للانتباه ، أو اتخاذ قرار للمضي وراءهما لمساعدتهما ، أو حتى للبكاء، والعويل، وإنما صار الأمر متعلقاً بما بقي هنا على الطوف ممن لا حول لهم، وهم الأم والصبية الثلاثة الصغار . و لم تفسح المحنة فرصة كبيرة للتحسّر على الفقيدين الجديدين، وبدا الصغار في هذا الرعب أكبر عمراً، وأشد بأساً وصلابة . وكأنهم درسوا فنون البحار السبعة . أما يوسف فقد صار مثل المعتوه . أو كمن لا يبالي بكل ما يجري من حوله،شغله الدّفة فقط. والأم مطروحة من هول المصيبة بين زهور الأغصان التي صارت مثل جنة تطفو بين السماء والأرض .. بلا قرار .. وتبدو الأغصان هي

الأخرى كروح الرجل مقطوعة من أرضها ولا تعرف في أي أرض ستنبت ثانية، وما ظهورها الآن إلا نوع من النزاع على البقاء من جديد .

وفي محاولتها تنهض الأم لتعوض جهد المفقودين الأربعة، ولكنها ما أن تنهض حتى يدور الطوف بكل ما هو موجود عليه، ولا تجد الأم نفسها إلا وقد تشبثت بجذع، ولا تدري هل ستبقى سالمة معه أم لا، من أجل الحمل الذي في بطنها، ولا من سيبقى معها ومن هول المعاناة تغيب عن الوعي.. ولا ترى إلا أحلام يقظة حولها : تحلم مرة بأنها جنية مسحورة ترعب غيلان المياه السبعة، فتبزها كلها، لتنتقم من هياجها، وتثويرها للمياه، في سيول عارمة . وتدور كجنية ماء عظيمة البأس بين الأمواج وقد أحدثت دوامات هائلة، تبصر ما حولها بكل وضوح . بل وتميز الألوان السبعة .. وترى غضب الشر في كل مكان، فتدور وكأنها روح حائرة تلوب لتبتلع ما حرمت منه طوال حياتها، وتتعجب من القدرة التي تملكتها فجأة . والرغبة النهمة بالابتلاع، ولكنها لا تبتلع أي شيء يقابلها . بل تلك الأرواح الهائمة، بعيدة عن أجسادها، أرواح شريرة، انتقمت من البشر، وعذبت الكثيرين بالغرق الخاطف، وتعليق الغارق من أجفانه . وكأن الزوجة التي صارت جنية ماء على شكل دوامة، تريد بذلك أن تصهر هذه الأرواح في بوتقتها التي تشبعت بالحرمان والاضطهاد، لأنها تخشى أن تعود تلك الأرواح للتجسد من جديد بأشكال تريد الانتقام من بني البشر مجددا، وترى الأم الجنية أنها قد أصبحت الأم الكبيرة للدوامات كلها . ويتصادف أن تقوم بافتراس مارد ضخم، بثلاث عيون، تتوسط الثالثة موقع الأنف ..

لهذا شخصت الأم المارد بأنه فاقد لحاسة الشم . لا تضيره الروائح مهما كانت، ولا يميز بين زكيها، وكريهها . لهذا اشمأزت الأم الدوامة منه، ولم تستسغ طعمه رغم أنها لم تمضغه، أو تطحنه كما تفعل الدوامات، كان قصدها أن تعلقه من آذانه ليكون عبرة لغيره، ولكن آذان المارد هذا هي زعانف تمتد على طول جسده بألوان قاتمة كالحقد المظلم، شائكة كإبر

الشيليك البري اليابس، مستعصية مثل رأس الشص، إذا انغرز في جسم لدن كاللحم، لا تخرج منه إلا وقد خلعت معها جزءا من لحم الجسم .

وتحاول الأم الجنية بعدها أن تتخلص من لا إنسيتها لتعود إلى أولادها السبعة فقد نسيت منذ البداية أن غايتها في أن تنقلب جنية كانت لتبحث عنهم في هذا الخضم. ويتوسل المارد إليها أن تعفيه هذه المرة، وتدعه لحاله، لأنه في مهمة خاصة، بعثه بها ملك الشر، وإن لم يقم بمهمته في وقتها المناسب نال أهله الويل والثبور، من جلاوزة ملك الشر هذا .

وعندما تستفسر منه بسرها عن بغيته، لا يستطيع إجابتها، ما لم تعده لحاله . وبينما تحار الزوجة الجنية بأمرها من هذه الحالة التي لم تمر عليها آنفا، تعجب من وقوفها بوجه مارد وسيط لملك الشر، وكيف لها أن تدعه لحاله، ما دام هو عملاق المهمات الشريرة التي قد تكون مأساتها واحدة منها، وربما يكون هو من أجهز على أولادها . ويفهم المارد بسره مغزى تساؤلها، فلا يستطيع الإجابة، ويتمنى ألا تسأله عنهم . فهي لا تعرف حتى الآن أن الثلاثة الآخرين من أولادها قد لحقوا بالأربعة الأوائل، هؤلاء الذين ذوبهم لتوه في أعماق مياه المحيط، وجاء لكي يجهز عليها، وعلى جنينها ساندريلا العصر، ولن يبقى لديه فيما بعد سوى مهمة تعذيب الزوج يوسف النجار بجعله يتوه في العالم .

وتنتبه الزوجة الجنية لأفكار المارد، المحتدمة، وهواجسه الداخلية، فتلتقط منها معنى التيه، وعذاباته التي لا تقاس بأي عذاب آخر، فأن يموت الإنسان أسهل كثيرا من التيه، وفقدان الاتجاه . وتكون الزوجة الجنية هنا قد ابتلعت نصف المارد، بلا وعي منها، وقد بقي النصف الآخر في فمها . فما الحل يا ترى فهي تلوب هنا في حيرة من أمرها وتتشبث بمنجد لحالتها، وترى أنها عطشى لا ترتوي رغم أنها عنصر لا يتجزأ من الماء، مالحا كان أو حلوا . فكيف للماء أن يعطش، وكيف للماء أن يروي نفسه بنفسه . هذه المعادلة وضعتها في كابوس شديد التوتر، وهي على حالها متضايقة من

وقوف المارد بين فمها ومبلعها، محشورا بحيث لا يستطيع أحدهما التخلص، أو التملص من الآخر .

وتفيق الزوجة الأم فترى نفسها ما تزال متشبثة بما تبقى من الطوف، وما عليه من أشجار، وقد تشنج فكها الذي فتحته إلى أقصاه، فلاذت بزير الماء تبغي الارتواء منه . ولكن لا أثر للزير الذي كانت قد طوحت به العواصف، والأعاصير التي صارعها الطوف ومن عليه من عائلتها، فلم تعرف الزوجة الأم في أي مستقر صار الزير . وبإنصاتة غائمة تستعرض أركان الطوف فتجده بلاحراسة، وقد تكالبت الأمواج من حوله، تعلو، وتهبط في هياج فتتشبث بالجذع من جديد .

ومن هلعها تغيب ثانية ليعاودها حلم من نوع آخر، فترى بأنها أم لمجموعة الأشجار التي جمعها زوجها يوسف بعناء، وقد نمت في غابة سحرية، تمثل أطراف الكون ربما خليط من كل العوالم الخفية، وصارت هي الأم أعتق شجرة فيها . وعلى الأشجار شانات لخلايا نحل عسل الجنة، مدلاة كأنها مسابح، أو قلائد بأحجام تتراوح ما بين كبر، وقدم الشجرة، لكن شانة خلية نحل الشجرة الأم التي تقمصتها الزوجة هي الأكبر، والأقدم، والأجمل، تشكلت بسبعة شواهد * يكبر أحدها الآخر بعام . أو عامين . إلا الأخيرين، فيبدوان وكأنهما قد تشكلا في نفس اليوم، وربما الساعة، ويشبه أحدهما الآخر حتى في التشكيلة الزخرفية، وكأنهما توأمان، وتقول الزوجة أم الأشجار في سرها الذي مازال يعي الواقع الذي هربت منه، بأن التوأم سادس بطن حملته . وتتباهى الزوجة الشجرة بقلادتها النحلية، وتسمي كل هذه الشانات أبناءها الذين يزينون صدرها، ويحرسونها من كل غادر، أو متطفل .

وتدخل الزوجة الشجرة في بعض المرات في حالة كونها نصف شجرة ونصفها الآخر آدمية لها سيقان، وأذرع، وصدر، ولكن بلا رأس، إنها تمثل نفسها برؤوس سبعة، والثامن لم يبق له غير أيام لينبت بشعر طويل . ويبدو كأن الرأس الذي سينبثق قد تشكل من جوفها، وترى بنفسها مرارا أن الرأس

قد خرج من تحتها . وتسمع حولها تقاليد عرس، يبـدو أن الأشـجار الأخـرى قد أقامته لها . أو للرأس الجديدة، ليس ككـل عـرس، إنـه نـوع مـن الابتـهاج بمولود مهما كان جنسه .

ويأتي رجل مخيف لكنه مسن كالتـاريخ ليحدثـها وليذكرهـا بأنـها تعيش شخصية الحالم ، فتتفرس في وجهه، وتحس أنها تبصر فــي الحلـم، ويعـرف كلاهما بأنهما يعرفان بعضهما منذ الأزل، فتدرك الشجرة الأم، بأنه قـد جـاء ليأخذها بعيداء، فتريد أن تفيق طالبة مهلة لكـي تكمـل واجباتـها . علـى الأقـل عملية الإنجاب، ولكن الرجل على عجل، ولديـه واجبـات، ومسـافرون علـى الدرب في محطات أخرى ينتظرونه .

وعلى الساحل بعد أن رسى الطوف على فوهة الخليـج بيـن المـاء الحلـو البارد، والماء المالح الحار، يتفقد الزوج يوسف النجار أشياءه علــى الطـوف فلا يجد أثرا لبقية الصبيان الثلاثة . سبعة صبيان ضحية رحلة العمر، وأمله في الثامن في جوف زوجته ... لكنه وما أن ينزل للساحل لكي يشـد الطـوف بشيء ما حتى لا يجرف التيار الطوف بما فيه، يرى أنـه يشـد حبـل الطـوف من غير عناء، وأن الطرف الآخر منه راخ، منفلت .. فيحس بأن شيئا ما قـد حدث .

وما يلتفت باتجاه الطوف حتى يراه منسرحا، وقد ابتعد عنه بمسافة تكـبر شيئا فشيئا، وزوجته، أم أولاده الذين رحلوا هاهي الأخرى تتركه . وبمـا أن الزوجة المنصاعة لقدرها لا بد إلا أن تسافر، وهي تنظر إلى المولودة التي خرجت لتوها، فقد تناولها الرجل الشنيع بيديه الهائلتين، ووضعـها فـوق قفـة مطلية بقار هيتي*، وقذفها باتجاه الجرف، فلا يكون من يوسف النجار إلا أن يتناولها بأحضانه، وقد سالت دموعه دون إرادة منه، وقـد تقاذفتـه الـهموم .. ومتناقضات الحالة .. فهو بين نـارين : أيلحـق بـالطوف والزوجـة المسـافرة إلى مصيرها ؟ أم يتقبل الأمر، وقد منحته الزوجة الوليدة الجنين ؟ وداخ من الإرهاق وكثرة الهموم، وفقدان كل ما لديه، إلا الجوهـرة التـي صـارت الآن

بين يديه، وهي الابنة التي انتظرها الثمانية الذين رحلوا عنه، في هذه الرحلة المريعة .

ويغيب يوسف عن الوعي، ولا يصحو إلا على بكاء الطفلة في حضنه، وهي ترضع من ثمرة تمر سقطت فوقها، ويحس للوهلة الأولى بأنه قد استند بظهره إلى جذع نخلة باسقة وارفة الظل، تفيأ هو وابنته بظلالها، وقد تدلت منها عذوق الرطب الذهبية .

وينتبه يوسف النجار إلى أن البنت تنظر إلى الأفق بابتسامة ذات معاني، وتتكلم بلسان الكبار . فهدأ روعه بعد الإنهاك، والقهر المهولين، وأحس أنه بحاجة لمهلة يسترد أنفاسه ما دام ما يحتاجان إليه هو والطفلة من غذاء، ودواء فوق رأسهما، فناما بهدوء معا، ريثما يتعرفان على الأرض الجديدة .

هوامش :

* القصاب = اللحام .
* الكلك . أو الجلج = الطوف .
* القدوم = هي الفأس العريضة لحفر السواقي .
* الشواهد = جمع شاهود المسبحة .
* القار الهيتي = ربما يكون أقدم قار مستخدم في الدنيا .. وجد في مدينة أعلى الفرات العراقي .

دون بيبيه

عندما التم الجمع المعتاد على قضاء سهرة الخميس في المطعم المكسيكي ـ دون بيبيه ـ وضعت طاولة كبيرة في الوسط، ومن حولها طاولات رواد المطعم الآخرين، وقد شكلت هيئة أسود متحفزة للقفز .

وبينما تقاطر المدعوون إلى الطاولة الكبيرة، كانت فرقة العزف تردد ألحاناً أندلسية شجية، ومن بين المنشدين هناك وجوه تلبس أقنعة أسود، وسحرة، غير أن وجهاً نورانياً واحداً قد اختلف عن تلك الوجوه المقنعة، فهو وجه لإله فرعوني كأنه قام للتو من قبره، وجاء بكل زينته، وحلله، وبهائه . هذا القناع كان الوحيد، وربما تميز من لبسه بالفرادة لأنه العازف الفطن، والمعذب الذي يسمع، ويرى ما لا يراه، ويسمعه الآخرون، ألا وهو العازف بيدرو .

كان بيدرو يعزف بهدوء كعادته، ربما لأنه ما زال يشعر بالنعاس، ولربما تقمص شخصية الإله الفرعوني الذي يعاني من داء المفاصل التي ما تزال تؤذيه منذ آلاف السنين.

لكن العريف ببواطن الأمور يقدّر الأمر على نحو آخر . ولأن الجو العام يوحي بالشرقية، فالألوان المكسيكية الزاهية، حارة، دافئة، والنقوش عبارة عن توليفة سومرية، بابلية، فرعونية، وإسبانية مغربية .

وقد أحس الكل بالدفء والنادلات الفيلبينيات يضفن حرارة أكبر على جو المكان، برقة تصرفهن، وأحاسيسهن المضيئة بكلمات الغزل التي تداعبهن بين لحظة، وأخرى من قبل الضيوف، عزّابا، أو متزوجين حضروا مع، أو من دون زوجاتهم . ولأن المدعو بيدرو المتقمص لدور إله الغناء الفرعوني قد أصبح الآن أكثر استثارة، وتوقداً، فقد صار حماسه كبيراً، مما أثار استغراب أفراد جوقة العزف منه، وظنوا لوهلة أنهم يتعاملون مع مكسيكي عائد من عصر المايا، لكنهم تغاضوا عن خواطرهم الفردية، لعلمهم بغرابة

تصرف بيدرو، فما باله الآن وقد لبس القناع الفرعوني، لا بد أنه سيضفي على جو العزف تألق وانتشاء قد يرفع حرارة الجلسة، وحماس الزوار مما يشع صاحب المطعم على تمديدي عقد الفرقة لفترة إضافية، أو لمدة تعاقد جديدة . لهذا حسب أفراد الجوقة خواطرهم، وحسبوها إحدى التداعيات السخيفة . ولم يحس أحد بلا انتماء العازف بيدرو السني الطلعة، ولا بانسجامه في هوايته القديمة بعيداً عن الغناء، وهي كشف بواطن الأفراد من الجالسين على الطاولات، لهذا تتغير تعابير بيدرو بين مرة وأخرى، فيحزن، ويبتسم، ويبتئس، ويقهقه، لكن كل ذلك يمزجه بطريقته في الغناء، لكي تبدو منسجمة مع القناع الذي لبسه، ومع الحماس المطلوب لعلمه بحاجة الفرقة لعقد جديد لكي تعيش .

هاهو بيدرو ينتزع نفسه من نزعات الأفراد على الطاولات، ويحاول التخلص من هواجس الآخرين، ومن بواطن حقائقهم، وما يكنوه للآخرين في تفكيرهم الشخصي، وتداعياتهم . حوارات تعج برأس بيدرو، وتختلط فيما بينها، ورغم أن الأجناس هنا من مختلف الجنسيات، لكن التقاط التفكير ليس عسيراً تفكيكه، وترجمته لدى بيدرو، لهذا لا يريد أن يترجم هذه التداعيات في حوارات تطول لتملأ ملفات، ومجلدات، وروايات، يتمنى بيدرو أن يتفرغ لها عندما يغتني لصدر منها روايات سوف تجعله مشهوراً، ويعيش من خلالها في بحبوحة العيش . ويضحك بيدرو بين فينة، وأخرى لسماعه حوارات داخلية ناشزة، هي غير ما يقوله لسان الجار لجاره، مما يثير من هو قريب منه لهذا الضحك المفاجئ .

ولكن ضحك بيدرو لما يراه في المطعم شيء، وما يسمعه الآن من أمر يحدث في شقة قريبة على المطعم شيء آخر، لهذا لم يعد انتباه بيدرو يعير أهمية لما بدواخل الناس هنا، وإنما ركز جلّ تفكير في متابعة ما يجري في الشقة، فاحتوته الأصوات والهواجس، وألهته عن زبائن المطعم بقوة أكبر، خصوصاً وأن ما أغراه في المتابعة هو صوت صابر الزبون المواظب على

المطعم، وصديق الضيوف الذين احتلوا الطاولة الكبيرة، ولهذا تخيل بيدرو الشقة كما هي لعلمه بأن الشقة قريبة من المطعم .

وتساءل البعض الآخر ممن يجلسون على طاولة العشاء من أصدقاء صابر عن سبب غيابه، واعتكافه، رغم أنهم يحتفلون في المطعم الذي تطل شقته عليه، مقابل البناية التي تقع الشقة فيها . ويسمع بيدرو من يعلل الأسباب، لكنهم في دواخلهم يتمنون له الموت، شماتةً من تعاليه . فيبين كل منهم سبباً لذلك، وعندما ينزلق المدعوون تدريجياً في تفاصيل الحفل، وقد أشعلت المارغريتا رؤوسهم، وتخدرت حركاتهم، ينسون ذكر صابر في الصالح، والطالح تماماً، وكأنه ليس بصديقهم، وقد كان ليلة أمس هو مضيفهم هنا في هذا المطعم بالذات . وفي الطاولة نفسها . إلا أن بيدرو الذي وصلته إشارة الاستغاثة التي أطلقها صابر، وما يزال، تشير إلى أن صابر في خطر، وعلى بيدرو أن ينبه أحدًا ما، أو أن يقوم هو نفسه بالتحذير، أو الدفاع، ولكن حدود بيدرو، ومرونته لا تسمحان أكثر من التواجد في مطعم دون بيبيه المكسيكي، لا غيره .

ويعلو الحماس، وتزداد الأضواء إشراقاً، ولم يكن أحد لينتبه أبداً، أو يقدّر ما يمكن أن يحصل في شقة صابر المطلة على المطعم الذي يسهرون فيه إلى ساعات الصباح . ففوق في الطابق العاشر من الجهة المطلة على البحر حيث يقبع مطعم دون بيبيه، يخاف صابر أن يُبرز رأسه أعلى من مستوى حافة النوافذ السفلية، لأنه مهدد من قِبل مجهولين بقتله مع عائلته، وينسى في ذلك الخضمّ كل ما يحيط به، لأنه يزحف على أطرافه الأربعة من أجل أن يتأكد من قفل الأبواب جيداً، ومنها باب شرفة المطبخ .

وعندما يصل صابر إلى مدخل الشقة يفاجأ بأن الخادمة الفيلبينية التي نظفت الدار، وذهبت قد تركت الباب مشرعاً بضلفتيه الاثنتين على نهايتيهما . وبارتباك كبير كما في الأحلام، يقفل صابر الباب بصعوبة، ويتأكد منه عدة مرّات، وكأنه يريد أن يطمئن بأن داره هذه سوف تصبح في النهاية مثواه الأخير مع أهله .

ولم ينس صابر أن يلقي نظرات على آخر المناظر التي تشرف عليها شقته، ومنها إضاءة المطعم المكسيكي المنعكسة في مياه لسان البحر الممتد إلى الجزيرة الصغيرة، وأنوار الزوارق الراسية في نادي السابينا، ودخان شواء متصاعد من مدخنة فندق البحار السبعة، وكثير من المارة بمختلف الجنسيات . فشرفة المطبخ هذه تتيح بعتمتها مجالاً مناسباً للرؤية . ولكن ما أن يصل صابر زاحفاً إلى شرفة المطبخ حتى يجد أن النور قد غمرها، إذ ربما تكون الضياء من تأثير الاحتفال الذي يقيمه مطعم دون بيبيه المكسيكي كل أول خميس من الشهر، ويرى صابر من مكانه الطاولة الكبيرة التي أعدت لجماعته، ويحس كأنه بينهم، لكنه يشاهدهم بعيون العازف بيدرو، ومن طائرة فوقهم، وقد جلس عليها معارفه وأصدقاؤه المقربون، فذلك غزوان، وهاتان سليمة، ومريم . وتلك شهلة زوجة مسعود الذي خرج من المستشفى لتوه . ويبدو أن هذا الاحتفال هو بمناسبة شفاء مسعود نفسه، ولكن أين له من منفذ لكي يذهب، ويقوم بالواجب كعادته .

ويحس صابر بأن جماعته يستبطئون قدومه، ويرى كأنهم يشيرون إليه بأصابعهم، ويؤشرون له بالنزول، فآه لو يدرون ؟ وإن دروا فماذا بيدهم أن يفعلوا غير التأسف ؟ أو ربما الهروب، أو تبرير ما يقوم به من هدده . بل إن بعضهم سوف يؤنبه، ويلومه، وبعد الحادث سيكونون أول من يؤدي واجب التعزية لأهله، وينعونه لأهله .

وفكر صابر بأنسب صيغة للبرقية : نشاطركم الحزن، والأسى لوفاة المغفور له ابنكم، وعائلته، ونتقدم إليكم والأهل بخالص عزائنا، ونتمنى للمرحومين الراحة الأبدية، ولكم الصبر والسلوان . وينسون تعبير فلتشل الأيدي الأثيمة .

ولكن هؤلاء الأصدقاء منشغلون الآن بالأكل، والغناء المكسيكي عن الدنيا كلها، وقد صعدت أبخرت التكيلا، والتيماريا، والبيناكلاته، وروائحها إلى أدمغتهم، ولم يحسوا حتى بالطاولات التي حولهم، فكيف يتذكروه . فإذا قام بالاستنجاد فهل سيسمعونه من خلال صخبهم ؟ لقد سقط كرسي أحد

زملائهم من تحته، وما من أحد رآه، أو أحس به، بل إن من رآه مصادفة اعتبر سقوطه نوعاً من أنواع المزاح، أو جزءًا من فعاليات السهرة، فكيف لهم أن يحسوا بصلي الرصاص الذي سوف يثقب جسد صابر، وجدران شقته، وهو في الطابق العاشر ؟

ورآهم صابر من بعيد يبتسمون له ثانية، وتهلل النساء فيتخيل أنهم يشيرون إليه بالنزول لمشاركتهم، بل ربما استغربوا من أمر مقاطعته للمشاركة في تهنئة المريض على شفائه .

ويسمع بيدرو رنة جرس غريبة، تشاءم لها، ولم يكن قد سمع لها إيقاع موسيقي RETHEM مناسب .

وفي الحقيقة : إن هذا ما سمعه صابر أيضاً، فقد رنّ فجأة جرس الباب، فسرت رعدة رهيبة في أوصاله، انعكست على بيدرو وعزفه . وماطل صابر في فتح الباب، فهو في الواقع لا يريد أن يفتح الباب أبداً حتى لمن سوف ينقذه، ولكنه يفاجأ بقدوم عابدين أحد أصدقائه ممن يفترض أنهم جاءوا لمساعدته، وقد تركوا الجمع الساهر في مطعم دون بيبيه المكسيكي، ولا يعرف صابر بأن واقعه يؤكد بأن من بالباب معه ليسوا سوى زملائه في العمل، فيذهب دون إذن ليفتح الباب .

وفجأة يرى صابر تورط زميله عابد مع عابدين، فيحاول بيأس شديد غلق الباب حالما برزت رأس رشاشة سوداء يحملها مجنّد . وتلاها جسد كالجدار بوجه مثل مظلة سوداء، تبعهما رشاشة ثانية، فثالثة .

وسرعان ما امتلأت الشقة بفرقة الإعدام، وهاهم قد بدأوا صلي كل ما هو حي فيها، وغير حي . وبين لحظاته الأخيرة، تمنى صابر شيئين :

الأول مشاهدة شقته بعد الانفجار .

والثاني صيغة برقية التعزية التي سوف تكتب من قبل زملائه لأهله .

وقد أبرق صابر ذلك لبيدرو وهو في حالة الاحتضار، أما بيدرو فقد أصابه الصمم، وفقد كل اتصال بالعالم الخارجي، لهذا لم يستطع التنبيه، ولا التعبير عما يحصل في الشقة بعد الحادثة .

وبينما يخرج أصحاب المهمة من شقة مَن كان يدعى بصابر، يكون مطعم دون بيبه المكسيكي ما يزال محتفلاً بضيوفه، والسهرة ما تزال في أولها، من أول خميس في شهر تموز المبارك، وما يزال لدى أصدقاء صابر أمل في أن يلتحق صابر بهم في أية لحظة .

زوج الثلاث

أمسكت فرحة حماها جبوري من ذقنه، وصرخت بزوجها أن يدفع عنها فضول هذا اللعين الذي جاء لكي يعيرها بصبغها شعرها بالحناء، لأنها أكبر من ابنه سناً :

فرحة : تعال يا بطرس وقل لوالدك المتداعي هذا: كم امرأة أمات حتى وصل لهذا العمر .

ويرد الحما على كنته . والزوج الابن يصك أذنيه باللحاف لمساجلة طالما تكررت كل فجر أحد .

جبوري : يوم يحفر قبرك ابني وأدفنك أنا بيدي، ولن أتأسف عليك .

وتقوم فرحة بملاسنته بلا عصبية، وقد انتهت من غسل شعرها وبدأت تفرك وجهها بحجر الرحى، لعل طبقة من اللون الرمادي البرونزي الصدء تزول عن وجهها، وهي تنظر إلى سلفتها الصغرى، التي حضرت من إستانبول . فيبادرها الحما، وقد استفزته حجرة الرحى :

جبوري : لا يفيدك هذا بشيء فالقرد قرد، ولو طوقته بالذهب.

فرحة : والقبر لك ياحفار القبور، لقد شبع التراب من لحمك وما تزال في وجهنا، عفّ عن الدنيا، فماذا تريد بعدها لقد أمّت زوجتين .

جبوري : أموت، وأنا الذي أريد أن أزف، قريباً يا وجه النحس... بعنادكم فلن يمضي العيد الكبير ما لم تسمعوا بزفافي .

فرحة : يذهب القش والقشاش ويبقى البوم في الفراش .

جبوري : غزال والله غزال بعيون كحيلة .

فرحة : ومن تكون تعيسة الحظ، لكي تتزوج لقلوقاً مثلك .

جبوري : لو لم تكوني زوجة ابني للأسف، لعرفت بأية عبارات أكلمك. إنها زينة بنات الديرة، وأكثرهن دلالاً، ومعزة لدى أهلها .

فرحة : من ترضى بك إلا عانس شمطاء . أو أرملة رقطاء .

جبوري : تتمنين أن تكوني ببياضها، كما ورمة حوصلتك من امرأة ابني الصغير، فما عليك سوف تكونين ضرة لحماك الجديدة، يا من نحس ابني في رزقه، وماله . موتي لن أستحيف عليك متري الخام . موتي وأنا كفيل بتكاليف دفنك . بل سوف أعمّق معولي، لكي تغوصين في التراب أكثر، فلا يظهر لنتانتك رائحة، ولن ينبت من أوساخك حتى شوك الحرمل .

فرحة : لا تغالط نفسك فنحن من سيزفك لقبرك، فهناك نتوجك على عروسك السحلية لتنهش من عظامك، ما دام لم يبق منك لحم .

جبوري : على الأقل لحمي طري، وحلو المذاق، أما أنت فمذاق لحمك الصدئ مر مثل زقوم .

ويتزوج والد بطرس حفار القبور، وتتباهى الكنة الجديدة أمام لا ضرة، وإنما زوجة ابن بصفة حماة، عندما تنشر ملابسها، وملابس زوجها جبوري بأنها سوف تلد لهم عما لأولادهم، ولا تريد عمة، لكن والدهم جبوري يريدها بنتا، وهي لا تعرف ماذا تعمل، تريد لزوجها ابنا ثالثا، فهي غير قاصر، ولا أقل من أن تنجب لهم ولدا، ابن صائد الخنازير البرية، لكي يكون له من كل زوجة ولدا، وتتمشى فرحة في الحوش، وتهذر لنفسها :

فرحة : من أين له ذلك ؟ عجبا فابنه قد بلغ الستين، وهو لا يأتيني الفراش إلا نصف نائم، فهل بين مهنة الحدادة ، وحفر القبور تناقض كبير .الحرارة تولد الحرارة، وحرارة الكور عنيفة . لكن والله ذلك شيء عجيب . كل ذلك من أكل الحلويات حلاوة من السماء، وربما عسل من منحلة أهل العروس .

وتنبري فرحة تحدث نفسها بقولها :

فرحة : لندعها ترغي كما تريد ممدوحة هذه .

وكأن ممدوحة قد سمعت كلامها، فتقوم لترد عليها كأنها صل أفعى :

ممدوحة : ما لها ممدوحة ألا تعجبك، وهل بارت، لقد طلبني الكثير من العرسان، ولكن أهلي فضلوا من يعرف قيمتي .

فرحة : أخيرا !!!

ممدوحة : إن جبورتي ليس حفاراً للقبور فقط، لقد اضطر لذلك لكنه صياد ماهر .

فرحة : أجل أعرف كل القصص فهل لحق على سردها لكِ منذ أول شهر ؟

ممدوحة : وماذا يبقى بعد أسبوع ؟

فرحة : نعم، نعم ..

ممدوحة : فلاح وصياد ماهر ... لقد أعجبني فيه قوته، وصلابته، خصوصاً يوم قتل الخنزير البري ..

وتقاطعها فرحة على عجل لتسرد قصة اصطياده للخنازير البرية، وتقوم لتمثل كيفية الصيد، بالنط على رقبة الخنزير، وذبحه بالخنجر، فتنط على ظهر ممدوحة غايتها أن تطرحها أرضا، فلربما يكون جبوري قد أورثها فعلاً ذلك الجنين الخفي، فبهذه الحركات سوف تفقد ممدوحة جنينها، وتجهضه بلا وعي منها .

وبعد أسبوع تئن ممدوحة من ألم حاد، وتأتيها فرحة بكل ما لديها من أعشاب مسهلة، تزيد من علتها . وما أن تمضي الأيام حتى يتحقق أن ممدوحة لم تكن تحمل إلا بوهم العوانس .

وخاب ظن جبوري هو الآخر في وريث جديد لمهنة حفر القبور بعد أن يأس من توريثها لأحد أولاده . أو أحفاده، فهذه الحية فرحة تفسد عليه كل خططه .

وبعد سنة يسقط جدار أحد القبور على جبوري ولا يجدون من يتولى حفر قبره، فتذهب فرحة لتساعد ممدوحة الزوجة الثالثة على مواراة الزوج، والحمو بقليل من التراب، بعد أن تعبتا من تعميق القبر . أو توسيعه، ولكي يدفن مع الميت الذي انهار جدار قبره، لأن لا وقت لأحد يضيعوه في حفر قبر لحفار قبور، وموسم الحصاد على الأبواب، والفلاحون قد أوصوا بطرس، وإبراهيم جبوري على مناجل حادة لحصاد الحنطة والشعير، لكلا الأخوين ابني حفار القبور .

وقد تعلل أكثر من حداد في سوق الحدادين بقوله، وكأن أحدهم قد تفل في حلق الآخر :

كان الأجدر بجبوري هذا أن يأخذ حذره، ويحفر لنفسه قبراً يتناسب ومقامه كحفار قبور ، فمن منا له الوقت الكافي ليترك طلبات المناجل العاجلة، ويذهب لحفر لحد لحفار قبور مثل جبوري ؟

وتهكم مزارع ينتظر منجله من بطرس ابن الحفار بقوله :

المزارع : حفار قبور بلا قبر مثل النجار بلا باب، وإسكافي بلا نعل.

وبصق المزارع على الدنيا، ومصائبها، متأسفاً على مهنة لم تدم للبلدة يموت فيها الناس بالمصادفة، وعليهم أن يدربوا حفاراً لهم في بلدة أخرى، لأن أسرار الموتى وقداستهم لا تحتمل أن يطلع عليها حفار قبور غريب .

البحر يغرق

بينما كان "علاء، وكنعان، ونرسو" يسبحون على شاطيء البحر، إذ بـ"زابوو" يخرج أمامهم فجأة على ظهر دلفين، وقد تعلق بعضهما بالآخر كأنهما عبد وسيده . أو سيد ومملوكه . بل هما محبان لا غير . هكذا تخيّلهما كل فرد من الأصحاب الثلاثة، وللحظة خاطفة .

ويقترب "نرسو" من صديقه "زابوو" الذي دعا صاحبيه لمشاهدة زابوو، لكي يثبت لهما صحة ما رآه من "زابوو" في أحد الأيام . لالأن يكون في نظر "كنعان" على الأقل، أكثر من مدع جاهل . أو مُبالغ يختلق الخرافات وقد كانا "كنعان، وعلاء" لا يصدقانه، لهذا فقد شلّت المفاجأة لسان "كنعان"، وخجل من التشكيك بما كان يقوله "نرسو" . وحانت من "نرسو" نظرة لـ"علاء" الذي خفض راسه لكي لا يحرج "كنعان" .

وما هي إلا لحظات حتى كان "زابوو" قد أصبح في وسطهم . ولم يصدقا أن من هو بينهم من بني البشر، فإما طيف من خيال . أو بطل أفلام الغابات . أو ممثل أفلام الخيال العلمي لمملكة البحار . وكأنهما يعيشان داخل إحدى قصص ألف ليلة، وليلة، خرج عليهما أحد أبطالها لتوه .

ولم يعر "نرسو" اهتمامًا بعد الآن، فقد تحقق جزء من مصداقية قوله .

ولأن "زابوو" الذي وصل فجأة قد ترك الدلفين لحاله بإشارة لم ينتبه لها أحد من الثلاثة، ربما لهول ما رأوا . أو لأن الاثنينلم يصدقا ما رأيا . وانبرى "نرسو" يعرّفهم ببعض . ولكن "كنعان" المتسرّع دائمًا، لم تحمله معدته، فقال بعد أن أفاق من الصدمة، مختبرًا القادم، ليمتحنه كما يفعل الأستاذ، مع تلاميذه :

من أين جئت، أقصد هل في البحار مملكة للإنس ؟

وسارع "نرسو" للقول :

- الطبيب "زابوو ميلان" صديقي، دكتوراه في علوم الأحياء. بيتهم في محلة "نادي البليارد" خلف الميناء العميق ..

ولكن "كنعان" لم يبال في جواب "ترسو" . بل أصبح أكثر عدائية، واستفزازا، مشيرا لبدلة "زابوو" المطاطية بقوله:

- تعرف إذن مهنة الغوص، بلا معدات .

ولم يطل الوقت، لأن "ترسو" دارى على سؤاله، وحبذ "زابوو" تطاولا كهذا، مفضلا عدم الإجابة بعجالة .غير أن "علاء" كان أقل فضولية، وأكثر حياءً، وخجلا، واتزانا . لا يريد إحراج أحد . لهذا لم يحب أسلوب "كنعان" إلا في القفشات . فاستنكر ذلك وبادر بتوجيه الكلام الهادئ لـ"زابوو" قائلا :

لا بد أنها هواية جميلة ؟

وقبل أن ينطق "زابوو" بحرف قال "كنعان" بلا صبر :

- من مثلهم، إنهم يقتنصون الفرصة، ليس مثلنا، لا حظ لنا في أي شيء . فإذا ما مسكنا الذهب انقلب إلى تراب .

ولم يفد لكز "علاء" له، ولا تضاحك "ترسو" الحرج، حتى انتهى "كنعان" من ندبه . ثم ضحك وحده حتى صمت، وقال :

يبدو أنني أفسدت الجو كالعادة ؟

وهنا تكلم "زابوو" كأنه حكيم جاء من المجهول :

- لا لم تفسد الأشياء . بل وضعت النقاط على الحروف بسرعة . سأخبرك معنى أن ينقلب التراب إلى ذهب، وبالعكس .. ..

وقام "زابوو" ليشرح له المعاناة التي لاقاها في التعرف على هذه الهواية، وممانعة الأهل، ثم التعرّض لفحوصات الأطباء، وصار يشرح تفاصيل كثيرة حتى وصل إلى مخاطر هذه الهواية . منذ بدأها وهو شاب يافع . فقد ولع بالحياة البحرية، منذ كان طفلا، وهو يرى إلى الحيوانات البحرية بفضول، وما أن تخرّج من الثانوية حتى أصرّ على دراسة علم الأحياء في كلية العلوم .

وفي يوم لم، ولن ينساه في عمره . دخل "زابوو" البحر سابحا، وإذ به يسمع بآذانه أنغاما لأصوات تناديه، وتطلبه بسحر غامر، فعجب لهذه الهواجس، وفكّر بأنه مسٌّ من الجنون . وعندما عرض الأمر على أستاذه، في مرحلة إعداد بحثه للماجستير، أفاده الأستاذ بأن عليه أن يتعمّق في الاستجابة لهذا الهاتف، لعله يكشف سراً بايولوجيا، لم يسبقه إليه أحد . وما عليه إلا التدرّب على مهنة الغوص . وكان على "زابوو" أن يدخل دورة بعد عندما اجتاز امتحانات التدريب الأولية من بين خمسمائة متدرب، بعد أن اجتاز فحوصات القوى البدنية، والصحية .

وهكذا صار لزامًا عليه أن يعود البحر، مع مجموعة من المتدربين. بينهم أستاذه المدرّب . حفظوا قوانين، وشروط الغوص الدولية، ومحاذير الاعتداء على حرمة شاطئ . أو مغاصة. أو حتى سفينة غارقة بل إن لدخول السفينة الغارقة أساليبها العلمية، تكونت له مع بعض زملاء التدريب أواصر الهواية . وقد سحر البحر زابوو منذ البداية، وكأن تلك النداءات لم تكن سوى هاجس داخلي حفزه إلى دخول البحر، ومن عمق إلى آخر، ومن ساحل إلى غيره، وبلد إلى بلد آخر، ومن نادٍ إلى نادٍ متخصص آخر، ومن مجلة متخصصة إلى أخرى، يكتب، ويدوّن، ويبحث، ويرتقي درجات في علمه .

ولم يصل مع هذا لإرضاء هاجسه . بل صارت الأصوات التي تناديه . تسحره أكثر فعمد إلى دراسة لغات الأحياء البحرية، لكل فصيلة لغة . بل ولهجة . وطباع ولكن كل تلك الجهود كانت لا تتميّز عن جهود من سبقوه من دارسين . حتى كان اليوم الذي تصادف أن أنقذ دلفينًا من مياه ضحلة . فقد علقت أنثى الدلفين فيها، وراح "زابوو" يحاول إنقاذها وحده، ومن حولها صغار الدلفين تذرف دموعاً ساخنة . ولو لا وجود صخرة مرتفعة على بعد ميل بحري داخل الماء، ومعرفته بأمور الغوص، لما أنقذ الدلفين ولصار الدلفين أحد ألعاب أطفال الشاطئ، حتى بعد مماته . ومع حصوله على الحبل وشده بالصخرة من جهة، والدلفين من جهته الثانية، غاص

"زابوو" إلى الصخرة، والصغار من ورائه، وبدأ يسحب الحبل، والصغار يقمغمون، ويتقاطرون من نهاية إلى أخرى جيئة، وذهابًا، حتى تحرك الدلفين من مكانه الذي علق به، وصارت أناشيد الصغار بأنغام من نوع ثاني ... وهكذا حتى تمت عملية سحب الدلفين لمكان يستطيع السباحة فيه . وقتها تغيّر النشيد إلى مستوى آخر، ولم يجد زابوو نفسه إلا وقد احتضنته الدلافين الصغيرة من كل صوب، وهي تنشد احتفالاً بعودة الأم إليها، ونجاح المهمة . ومن حسن حظ "زابوو" أن آلة التسجيل التي لم يكن يفارقها، موجودة، ولم ينس منذ البداية أن يشغلها .

وفي المعمل اللغوي، فاق الخيال ما تصوره، وفزع من الرموز اللغوية التي وصل إليها، وأطلع بهذا الأكاديمية العلمية البحرية. وساعده بذلك مستشارون، من عدة دول . ولقد اعتبر بحثه رياديا . ولكنه لم يكن ليهتم بالبحث بقدر ما اهتم منذ ذلك الوقت، بالعلاقة التي نشأت له، مع مجموعة الدلافين هذه . فالأم قد شاخت الآن، والأولاد، والأحفاد يعتبرونه من أسرتهم تماما مثل عراب . أو شفيع من دنيانا إلى دنياهم .

وصارت له لغة مخاطبة، لم يتقنها غيره، وعندما يحضر المؤتمرات الدولية . تحرص تلك الجهات على أن تستضيف واحدا من الدلافين على الأقل، ويكون لديها دلافينها لتقارن مستوى التخاطب هنا، وهناك، ومدى انتقال، وتغير اللهجة من مكان لآخر .

ولكن هواية الغوص ليست كلها ملذة، ومسرة : أضاف زابوو وهو يواصل حديثه، وقد انجذب إليه الثلاثة كل بطريقته، فإن لمهنة البحر تفاصيل من المخاطر، وأهمها الإدمان على غاز النتروجين الذي يترسب في الدم، وكذلك الترسب في مفاصل العظام . وهذا الذي يعاني منه كثير من الغاصة، و"زابوو" واحد منهم منذ البداية، ولكنه بعد أن تعرف على دلافينه لم يعد يخشى الإدمان، فقد صار البحر جزءا من حياته . ولا يضيره لو خلع قنينة الغاز ورماها جانبا وهو في الأعماق . كما لا يضيره في أي عمق يتدرج، وبأية سرعة يخرج، فالحواري اللواتي حوله سوف

ينقذونه . ولقد تصادف أن أنقذ كثيرا من مدمني الغوص ممن يخدّرهم النيتروجين، من الذين لا يبالون في عدم استنشاق الأوكسجين لإدمانهم نشوة الخدر بالنيتروجين، وحالما يرى "زابوو" حادثة مثل هذه يهرع بمعاونة دلافينه. بل إن الواحد منهم صار معتاداً على إنقاذ حالات شبيهة دون أن يكون هو معها .

وانتهى "زابوو" من هذا السرد الساحر الذي لم يدع حتى "لكنعان" أن يجرّ نفسه ليقاطعه . بل إن كنعان كلما أراد الكلام، أمسكه "زابوو" من يده بطريقة يبدو أنها توقف الأعصاب التي ترسل إيعازات النطق فيتوقف هذا متعجبا، ذاهلاً لا يقوى إلا على الإنصات بانبهار تام .

وفي لحظة كان قد خنخن "زابوو" ولم ير الثلاثة إلا و"زابوو" يعلو فوقهم، وقد رفعه الدلفين، وغابا كأنهما طيف من خيال، ومن خلفهم عرس راقص من فعاليات الدلافين الأبناء، والأحفاد . والتفت الثلاثة لبعضهم مشدوهين، وعادوا لوعيهم . فقام "كنعان" بالمبادرة الأولى، لكي يعلق لكن، "علاء" أسكته بإشارة وذهبا باتجاه الساحل ليلبسا، ويرحلا . وكأنهما قد خرجا للتو من حلم كابوس عاشاه، وفكر كل منهما في نفسه، هل يعقل أن يعيش بيننا بشر بهذا الطموح، وهذه الحيوية، وهذا العلم، وهذا التفاني؟ ونحن لا نطيل صبرنا حتى على إحصاء ساعات يومنا التي تركض بنا دون طائل .

ولم يكن "ترسو" قد لحق بهما لأنه كان منشغلاً، بإمكانية توديع "زابوو" كما كان يفعل عندما يلتقيه وحده . وفجأة أحس "ترسو" أنه وحيد عندما التفت ليرى إلى صاحبيه وقد غابا . بينما لم يزل يحس بدفء اللقاء، وحرارة المكان لوجود "زابوو" . وخرج لكي يلمّ ملابسه ويغتسل عند حافة الصخور، وكله انشغال بما حدّثهم "زابو"، فسرت قشعريرة في بدنه عندما مدّ قدمه لغسلها من الرمل العالق، وتخيّل تلك السمكة الخلدية التي تتوارى بين الصخور، وعندما تقترب منها فريسة تباغتها، وتمسك بأي عضو، ولا فكاك، فسحب "ترسو" قدمه بسرعة، لكن قدمه الأخرى بحاجة

لغسل، وود لو لم يفعل . أو أنه في أحد المنامات . أو أحد الكوابيس، فلا موت، ولا جرح . بل حتى الجراح لا تؤلم، وفي أقصى الأحوال سوف يستيقظ مفزوعاً، أما هنا فلا يفيد، لا الفزع، ولا الهروب ولا الصحو، فإذا ما خرج حياً فلابد من عاهة ستلازمه .

وأسرع "نرسو" بتداع مفزع لكي يتم ما عليه أن يفعله . ولكن عليه أن ينتبه، ولم يصدّق كيف قضى المهمة، ولم يتنفس الهواء النقي إلا عندما غادر الساحل، وقد حمل دمه على كفه، وذهب ضد التيار، فدار حول طريق البيت البعيد، ولم يعد إلى أصحابه تلك الليلة، لأنه صار عليهما أن يفهما معنى :

- إن لكل شيء ثمنه، حتى التراب .

من مقهى لآخر

جال "سلوان" ببصره في أطراف الكازينو الهادئـة، هـدوء الزمـن . ممـا جعلـه يشـعر بحنيـن إلـى الاسـتقرار، والـهدوء . بعـد أن أضنـاه الـهروب والترحال .

فقام ليسمع حوار العجوز وهي تناقشه مرارًا :

- وهل ستبقى أبداً مع سرير الأرق المتنقل ؟ لقد تعبت قدماك. وأضنى فكرك السؤال .

أسئلة شتى عن الحفل الأخير . وعن الربيـع, وعـن ,, وعـن،،وعـن كـل الذكريات .لا أدري ،، لا أدري كم بُعد الوطن عني ؟وكم صار الفارق كبـير بيننا . كم من الأهل, والأصدقاء قد رحلوا . إلى غربة داخلية وهم في الوطن . ينتظرون الغائب في حرب أو أسر، أو منفى .

وأسمع غناء ناسنا . كما نغني نحن في الغربة شوقنا، لكل شارع, وبـاب, ونخلة، وتراب في أرض حبلى بالثمار القادمة .

وفجأة وكالمخطوف ينتقل سلوان بكل هواجسه إلى سـحر مقـاهي بغـداد التي اشتاق إليها، ولطالما جلس فيها مع أصحابه طـوال مكوثـه فـي الوطـن، هاهي أمكنة تشعّ أمامه مثل قناديل الأديرة، وشخوصها التي تمر أمامـه مثـل شموع موقدة، أزلية . لا يبالي فيما تكون الشخصيات، والأمكنة، ولكنه يـهتم بكل التفاصيل بدقة محسوبة، وبمتناهي الروعة، فيفرز من بين آلاف الوجوه أوجهًا لا يمكن أن ينساها ففي مدخل مقهى بلدية العاصمة لا بد أن يقف بائع الصحف والمجلات الذي يعلن عن آخر الأخبـار، ولا يدخل سـلوان دون أن يكون قد مرّ على أكثر من عنوان للملاجق بخاصة . وتهجم عليه من الداخل رائحة المقهى الذي كان في يـوم مـن الأيـام ملـهى ليلـي، وقبلـها كـان مقـهى للقصـاخونية، ورائحة العتق هذه تتميز فيها روائح الأخشاب، وعطور الشاي

المختلفة مثل الدارسين لجاي الكوجرات، والهيل . أما في الداخل فتتوسط المقاعد في حارات، ومربعات، وفوق في البلكونان مقاعد للطلبة الذين يقضون أوقاتهم هنا في الدراسة، وبخاصة أشهر آيار، وحزيران استعداداً للبكالوريا . أما مجالس النقاد، والفنانين، والشعراء ففي أكثر من مربعة للمقاعد، هاهم : ر. الشريفي، ور. الرحماني، وق. العمراني، وك. العادلي، وو. البسامي، وم. الشامري، وغيرهم يناقشون أموراً طرحها كل من ع. الفاروقي، وم. الأديبي، وع. الغفار الوجداني لإصدار جريدة ثقافية فنية مستقلة باسم الألوية الخضراء، كانت جريدة محلية في محافظة جنوب قارية تابعة لوالد الوجداني عبد الغفور، وقد ذهب الثلاثة للاتفاق مع دار أبي عمر لصاحبها و. العاملي، وما أن دخل الثلاثة حتى التم حولهم الأصحاب، فبشروهم بقرار موافقة العاملي . وطلبوا شد الهمة، وتقديم المواد لتحريرها، وتنقيحها، وأول من تقدم هو الشاعر ق. العمراني، بقصيدة أخواص النخيل التي لم يستسغ لها والد الوجداني، فأهملوها، لكنه أعجب بفكرة وضع المناشيت الرئيسي على الصفحة الأولى للعدد الأول بعنوان "قتل في كاتدرائية وستمنستر"، وهي نقد مسرحي قدمه م. الشامري . نفذ معه العدد الأول بكامله . وعليهم التفكير بالأعداد الأخرى، وكانت الجريدة مثار اهتمام كافة الأستاذة، وبخاصة ع. أكبر الجعفري، وجلال الإبراهيمي . أما قصة صدره الصغير لـ ع. الفاروقي ثاني أثافي الثالوث، فلم ترق هي الأخرى للواجداني . وكان الحماس على أشده من المساهمين، أما الجهد الكبير في السهر والتنظيم فقد كان على الثلاثة فقط، يسهرون إلى الفجر، ويسيرون فيما بعد على أقدامهم من السيدخانة، وحتى ساحة الجولان ليفطروا بحساء العدس، ويذهب كل منهم إلى حال سبيله حتى الظهيرة حيث يلتقون في مقهى البلدية، ثم إلى ورشة العمل في المطبعة. لكن تلك الفرحة، وذلك العرس لم يدوما أكثر من ثلاثة عشر أسبوعاً، أي ثلاثة أشهر فقط إذ أعلن الثلاثة إفلاسهم، ولولا تنازل العاملي عن ديونه لسيق الثلاثة إلى المحاكم . ولعل

سلوان لا ينسى مقهى الأرجنتينية، بعد أن استعرض بخاطره كلا من مقهى الزهراوي، ومقهى الصافي . لأن في مقهى الأرجنتينية نكهة معاصرة تختلف عن ما مثيلات مقهى البلدية من أجواء يعبر عن المقهيين الآخرين . فلمقهى الأرجنتينية طقوس الياقات المنشاة من المثقفين، وهم في الغالب من المترجمين، أو المنتهلين من التراجم على مختلف مناهلها الخارجية . وكم كان يسعد سلوان عندما يحضر يوم الجمعة ليجد وجوهًا لا يحلم بلقائها في الأيام العادية، أو في محافل أخرى مثل أيام العروض المسرحية، ومعارض الفنون التشيكيلية لأن كل ضيف سوف يستقر في مقعد، أو يمر أمام لوحة . أما هنا فطقوس أخذ القهوة التركية، أو الكاباتشينو، أو الإكسبرسو فمختلفة بل إن دخان الجروت، والغليون هو الذي يغلب عوضاً عن رائحة الأراغيل في المقاهي الأخرى، . ويكون سلوان قد أرخى السمع لحوار ش. العلاوي عن الموسيقى الفنتازية، ور. إبراهيم رجب عن كتابه المخصص لنصب الحرية للمثال جواد سليم ، ويهمس أحدهم في أذن الآخر عن دخول الناقد التشكيلي ح. الراوي، والناقد والمخرج السينماني ل. الكامراني . وهكذا يقضي الصباح حتى الواحدة ظهراً من يوم الجمعة ليقوم وصاحبه الأبدي م. حسيي إلى أهم أفلام ظهيرة يوم الجمعة . ولا يعيد سلوان إلى جو الكازينو النمساوية إلا رائحة الكاباشينو التي مرت على كف النادلة من أمامه، فشعر بحوار جليسته، وهي تناغيه بقولها :

لقد التبس عليك الأمر ، حالما هربت مع سريرك المتنقل، بأرجلك الناعسة، إلى شيخ التجوال الدائم .تتمنى أن تستعير عيون طائر ليلي ليرى بدلاً عنك أرض بلادك، من فوق سمائها العالية .

فضاع منك خيط الربط :

- إنه خيط الناس، وليس خيطي الذي ضاع .

فتجيبه العجوز وكأنها قدره :

- لا بد أن تجاري السلوك العام .

إنني لا أستطيع السير في مسالك الآخرين،، وأحس "سّلوان" بصوت حوارها الصامت . تشاور فيه ذهنه الراقد حتى على سرير التنقل المتغير، وقد صار قطار تجواله الدائم :

لقد جلب لك هذا السرير الضنك . لأنه مع تنقله السريع متغير،نزق، ومجافٍ . فقد كنتَ معه عندما، دعوته بالسرير حجري العيون . ثم تركته في الجبل مع أسلاك السمع . وفوق أغصان اللوز المضطهد في ربيع الضفادع الداعية للخصب . رغم تداعيات الحروب الغاشمة .. ويقاطعها كأنما يقاطع بذلك أفكاره :

- أتعجب كيف تتذكرين تفاصيلي،، فأنا لا أتذكرها مثلك ،،

قاطعته على عجل،،بقولها،، :

- لقد هربت من سريرك إلى الأرض الجنوبية .

لكنه ذهب قبلك، واتخذ لنفسه شكلاً جديدًا . فجعلك تتجرف في تجارب، وتجارب . فوضعت الوشم في يديك، وفضّلت الصمت . ويتحسر "سّلوان"، ويشم رائحة السيجارة التي كان قد أطفأها على راحة يده اليسرى . فيحن للكلام، للصراخ، للبكاء، للضحك، للتألم بصوت عالٍ . لكنه، ماذا ،، ؟

وفجأة ينظر أمامه إلى حيث العجوز التي جعلته يتداعى، طوال هذه المدة، فلا يراها .فقد رحلت مع صديقتها،وظلت على المنضدة بعض آثارهما. أحمر شفاه على حافة فنجان القهوة وقطع نقود تصورها "سلوان" من عصر الأمبراطورة تيريزا،فيهمس لنفسه،وبصمت مرير :

- إنني أتساءل عن الأنشودة الأزلية، لذلك أفضل الصمت، ولا شيء غيره،، وقام ليشتري علبة دخان جديدة، تاركا وراءه كل تلك الأعقاب من السجاير، وقطع نقود صغيرة من عهد البائد، مودعا هذا المقهى إلى مقهى آخر، لعل المقهى القادم يعوض عشقه لمقاهي وطنه العريقة .

---

* - نشرت هذه القصة في جريدة النصر العراقية العدد(271) بتاريخ15/11/ 1967 وأعيد نشرها في مجلة المنتدى في الإمارات في العدد (48) سبتمبر 1989 .

من الماء إلى الماء

لما تقدم النادل من الجمل الذي يبرك، على طاولة لستة أفراد، وقد شخر، وحك أنفه الأفطس، منادياً :

النادل : يا أبا منصور كم سيت طقم تبغي ؟

فطار صواب ممزور بن خدية الملقب بالجمل لحظتها، ففي كل مرة يناديه النادل بكنيته، ولا يعرف أنه اسم يمس مخدومي أهله .

وتنحنح الجمل غاضباً ليفهمه بالإشارة من خلال غمام الكلمات فيهلوس : مثلما تفعل كل مرة، املأ الطاولة بما يقدّر لستة أفراد ولا عليك يا طلال .

ولعن النادل عندما سار عنه، وهو ينظر حينها إلى عقارب ساعته الملغمة بالماس مستغرباً تأخر جوي على غير عادته في المجيء مع طاقم السمراوات الأطلسيات، ويغمغم حيناً آخر باللعنات على صنف الخدم في الأماكن العامة الذين يتشفون في تعرية الناس بمناداتهم بأسمائهم الصريحة بأعلى الأصوات .

وتعلو جلبة القدوم، وتحتك ثلاثة أجساد متثنية، ريانة، ناعسة قبالة الجمل، وواحدة خدرة إلى جانبه يحاذيها قيصر المندل، الملقب بجوي . ولا يرى الجمل أمامه من تغيّر إلا اختلاف ألوان الشعر، و شكل تدويرة الشفاه، وسعة العيون . أما الباقي، فهذه البدلة ألبست كل من : وداد، وسعاد، ونهاد، وسهاد، ووهاد، و، و، ووسيلة و، و، و، و، ومليكة .

ولا يكمل لأن البدلة المخملية السوداء سحبته إلى ذكريات مع أول مرة لبستها معبودته زهرة التي ظلت معه لأربعة أعوام، دون منازع، صام وقتها عن كبائره مع الصغيرات .

ويرى زهرة بعينه الآن، ويسمعها تسأله عن رأيه في الثوب وهي تجرّب الفستان في محلات فيرساي، فتتناول أقراطاً ذهبية لكي تلائمها على الفستان، بينما تعللت بعدها بعدم تناسب

العقد الفضي مع اللون المخملي الأسود، فهرعا معاً إلى محل مجوهرات الغانيات الثلاثة، ولبست مدللته ما حلا لها .

لكن الجمل لم يتوان، ولم ينس أن تترك له كل شيء، وترحل عندما أدرك أنها أحبت . وحين جاءت تطلب منه أن يعتقها لكي تتزوج، سألها عن الشاب فإذا به ابن أخته، فأمهلها، وأملها، ولم يمهلها كأنه ولي نعمتها . بل واشترى لها بعض ما طمأنها .

وفي إحدى الليالي جاءها جوي ليطلبها على عجل، ولم تدرك زهرة وقتها لماذا ! فلبست بالصدفة سروال "الجنيس" الذي كانت قد وفدت به، وفي نيتها أنها ذاهبة إلى قصر الجمل، لأن خطيبها في انتظارها، كما كان قد أوهمها الجمل . ولم تعرف كيف استدارت السيارة في طريقها للمطار، وبلحظات وجدت نفسها في صالة الانتظار "الترانزيت"، ولم يبق إلا دقائق على إقلاع الطائرة دون شيء، حتى حقيبة اليد الشخصية، وقد سلمها جوي كيسا ورقيا فيه جواز سفرها، وكعب تذكرة سفر غير مرجعة .

ومن يومها تمنى الجمل ألا يتعلق بأية من هؤلاء، ولكن هذه، واستدار مستدركا ليسأل جوي عن اسم هذه التي تقابله، وقد توسطت بينهما "زكية" التي رشحها جوي لتكون مقربة الجمل . كما خبر بذوقه . ولكن ما الداعي لهذا التساؤل، وفطن جوي إلى أنه ارتكب خطأ كبيرا عندما ألبس فاتيما بدلة زهرة، فلعن ضيق خصر زهرة الذي لم يناسب خصر زكية . وكان قد فات الأوان عندما ارتدته فاتيما دون علمه . ولم يحتط هذه المرة لأنه ظن أن ابن خدية الجمل قد نسي عشقه الأول . فخصر فاتيما اللعين سوف يخرب كل مخططات جوي، وإنقاص قيمته أمام زكية، التي وعدها بأشياء على أن تحقق له مآربه . ولم يتأخر جوي عن الجواب، لكي لا يفسد كل ما بناه، فأجاب الجمل، ريثما يتدبر الأمر في آخر الليل، ففي أواخر الليالي تكون القرارات وليس في بداياتها :

جوي : فاتيما طويل العمر، صافحي سيدك يا فاتيما .

وابتسمت فاتيما من شغاف قلبها، وتمايست بدلال، وغنج، كما درّستها معلمتها، وراجع معها متعهدها، وأعاد جوي المراجعة عليها، وهي تنظر بدلال إلى منافساتها الثلاث :

فاتيما : فاتيما سيدي، خدامتك سيدي، يعيشك سيدي ،،

غير أن أوتار صوتها خانتها، ورجفت شفتاها، فغالبت دمعة، لكنها عالجتها بابتسامة سريعة ، عمدت أن تكون أعرض مما هو متوقع حتى كدرس، وهي تنظر إلى شفة الجمل السفلى، وقد انفلقت من المنتصف، وارمة مثل دمل ، مزرّقة من الأطراف، يعلوها زبد ببياض مصفر كالقيح، فاشمأزّت حتى الغثيان .

وتناهت إلى سمعها استغاثة والدها العليل بكلمات تحذرها من عاديات الزمن، ومن أن تضحي في سبيله، حتى ولو دنا منه الموت، لأنه لا يريد لها أن تنقم على الدنيا، وتنقم عليه بالذات، لو أنها زلت، ووقعت في الرذيلة .

لكن غذلها كان قد سبقه سيف غادر، وانتهى أمرها، وبقي والدها في علته معلقا بين سماء وأرض الوطن .

ومن حسن حظ فاتميا أن الجمل كان قد استدار ليقلب أمور جارتها "وزيرة"، فلم ينتبه إلى سرحان بالها، وانشغالها عن كل ما أحاط بها من ضوضاء، وقيام، وجلوس في الطاولات المجاورة .

أما الجمل فقد نظر لعرض أزياء نظيراتها، ودون احتياج لسؤال جوي عن اسم الفتاة التي تتوسط الثلاث قبالته عرفه جوي باسمها وزيرة، ورأى الجمل على أكتاف وزيرة شال مليكة، وقد وضعته فوق فستان نعيمة .

وتداعت الذكريات الأليمة بالجمل مع صاحبة الشال الأصلية مليكة تاركا نعيمة التي توسلت أن يبقيها لديه حتى كخادمة، ولكنه لم يدعها تمكث معه كثيرا . وهاهو يرى نفسه ، وهو يقبل شعر ملكية التي لم تطلب شيئا . ولكن صوتها الهادر بنعومة طن عاليا في أذن الجمل، وقد أبعده عن كل ضوضاء هذا النادي الليلي:

مليكة : واخه سيدي .

الجمل : مليكة أبغيك تكونين مليكتي، وألا تتركيني .

ملكية : يعيشك سيدي .

الجمل : تمام ؟

مليكة : باهي سيدي .

ولم تكن مليكة لتنطق طوال شهر، ونيف الذي مكثته لديه غير عبارات مبتسرة، تدلّ على الطاعة، والرضوخ . فقد اختفت فجأة ولم يجدها إلى جانبه في أحد الصباحات الرطبة، وقد استوت عذوق التمر الأصفر في أشجار النخيل حول قصره، وأصوات تداعي موجات البحر التي تتضارب رقة، وصفاء مع شقشقات ضحكات فتياته اللواتي خرجن من الصباح الباكر ليلهين بماء البحر الساحر .

وحزّ في نفس الجمل حتى الآن كيف كشف مليكة لأعزّ أصدقائه، ولم يزل جازماً أنها تقيم لديه . غير أن المحنة في أن الجمل لا يستطيع مفاتحة صديقه مرعي الخنان لكي لا يفقد صداقته . بل ويفقد مواقعه في الدرجات الاجتماعية .

وتناهى إلى سمعه كلام "مرعي الخنان" القائل :

الخنان : صداقتنا لا تعيقها أمور ثانوية .

الجمل : مثل ماذا ؟

الخنان : إن أخذت مني محبوبتي . أو استعرت منك أجمل فتياتك .

وحمد الجمل ربه، أن يقصد الخنان، مليكة إحدى فتياته، وليس إحدى بناته . وتذكر الجمل غباءه، وتحسره مفكرا : كم كان من المفيد لو تقدم الخنان إلى إحدى بناته، حتى ولو كانت كزوجة ثالثة للخنان.

الجمل : أحسن لـ"اللخمة" أن تكون متزوجة، على أن تبور أو تهرب مع تاجر ممنوعات . أو تبقى عالة على عاتقي .

ولكن مرعي الخنان لا يصرح عن حياته العائلية بشيء . بل لا يعرف عنه سواء أكان متزوجا بواحدة أم بثلاث زوجات .

وصحا الجمل على جلبة الناس في الطاولات التالية للملهى وقد علت أصواتهم، فسرقوا منه تداعياته .

ففي طاولة عراك الشبوطي مجموعة من الفحول مبرومي الشوارب . جاءوا يحستون العرق اللبناني، وكل أملهم أن توصلهم إحدى هذه السكرات للذة عرق "المسيح"، المقطر من التمر، على الطريقة الواسطية.

أما طاولة نادر خليل، فإن طريقة تعامله مع المجموعة التي يتصدرها دائما، هي التي تتابع من يوم إلى آخر تغير فتيات طاولة الجمل من خلال الملابس نفسها . فيقول منذر البس :

البس : يبدو أن ملابس فتيات الجمل معلقة في خزانة الملابس لوقت الحاجة!!!

ويجيبه مراد نوري بقوله :

مراد : أخشى أن نراك يوما متنكرا بأحد هذه الملابس .

فيضحك الجمع، ويلتفت مراد نوري متماديا، لكي يعاين ما الفستان الذي يتناسب، وقوام منذر البس قائلا :

مراد : أي والله لا يليق بك غير ذلك الأسود، وعليه ذيل الفرو، لكي ينسجم مع لقب البس، يا هارون .

وبينما ما يزال الجمع على طاولة نادر خليل يضحكون، ينبري منذر البس بقوله :

البس : وأنت يا "مراد" لا تليق بك غير حدبة الجمل، يبرك فوقك، كما يبرك الآن على الطاولة، مثل أبوالهول، ويشبعك من غيضه، وخبثه .

ويعلق أحدهم :

- أبا الحول، لا حول له، ولا قوة له على القيام إلا إلى السرير.

ويجيب نادر خليل :

نادر : وأي مكان أفضل في هذه الحالة، غير القيام إلى السرير يا ترى .

وتنطلق مبتدئة العبارات البذيئة، وهكذا . فيحس الناس من حولهم بخدش المشاعر . بينما تضيع حوارات الطبيب فؤاد، وزميله المهندس مهدي اللذين

جاءا ليحفزا الناس على التبرع لجمعية إنقاذ الجياع والأيتام من الأطفال بلا حدود، وقد استبعدا بالأصل فكرة انضمام أحد من هؤلاء إلى عضوية جمعية إنقاذ الطفولة من ويلات الحروب، لكن لا بد من المحاولة .

وعلى طاولة أبو رغد تدور حوارات متفرقة :

أبو رغد : اليوم وجبة جديدة من مدعوات أبو البراطم .

غانم : آه ذلك ؟ يسمونه الجمل .

محمد : لا تستدير فإنه محترم، ففي حوزته ملايين، الله يوفقه .

حيران : قلبه طيب .

غضبان : نعم لأن جيبه عامر .

جمال : موفق في حياته، مع مجموعته .

وتعلق سيدة من بين سيدات طاولة أبو رغد قائلة :

غادة : والله ما عايز الجمل غير "الأرغيلي" . وتجيبها الثانية :

لولا : ولووها، لو الجمل "ع " طاولتنا لرقصته "بريك دانس ـ BREACK DANCE" شرقي، وفرجت الدنيا كلها عليه .

غادة : ولأي شيء هذا ؟ هل تغارين منهن ؟

لولا : حاشى، فلدي أبا رغد سيد سيده .

غادة : ها، هاه !

لولا : أي نعم .

ويتطاير الشرر من عيني الجمل، لأنه لمح أحدهم تخيله من أهل زوجته، أو أقاربه، لكن جوي هتف وهو يبتعد عن الطاولة لكي يحيي صديقه "سالم القرقور" . وبهذا هدأت أعصاب الجمل، وعاد لاستكانته، وتأملاته، بينما علا صوت إحدى الفتيات طالبة الطعام .

سلوى : نديرو نتعشو .

وتجيبها زميلتها :

مقيمة : برشة طعام بيجيبو .

وعلى طاولة الريح نار الثلج، ثلة من المتحذلقين، ممن يجمعون معلوماتهم بالسماع، لينقلوها كمعرفة مكتملة، تحتدم النقاشات حول مخططات التدويل، والسناجق القادمة، بعيدا عن امبراطورية المائين فيقول وائل الدغل:

الدغل : إنها مخططات، وسيناريوهات قلت لكم منذ البداية أنها مدروسة، فهي منسوبة لجهة قابضة في المؤسسة المالية الكبرى .

وتؤيد زوجها حولة بنت قصير، فتقول :

خولة : إنك يا زوجي أوجه السياسيين، وأكثرهم فطنة، وتحليل .

وتنبري لمن حولها من السيدات الناعسات لتكمل حديثها، فيما استمر الزوج في تخليله، عفوا تنبيله، عذرا تطبيله، فتقول خولة :

خولة : زوجي لا ينام إلا بعد قراءة الجريدة، وحل الكلمات المتقاطعة فيها . تصوروا إنها زاوية مهمة في يومياته لزيادة المعلومات بالطبع ..

أما الزوج فإنه قد انهمك في التخليل السياقي :

الزوج : كلا، كلا كل المخططات باتت مكشوفة .

تاج الدين : ومتى تكون مستورة يا أبا طائلة ؟

برهان : كلها مستورة لكن الفرق فيمن يعرف كيف يكشفها، أنتم لم تعوا بعد أسلوب المعايشة اليومية للأحداث السياسية، انظروا قضية إمبراطورية جوزيف خليفة فلاديمير، وما آلت إليه..

وتعلو الموسيقى الصاخبة، فيذوب صراخ المتنابزين بما فيهم جعير وائل الدغل الذي يحاول إسماع صوته لأقرب محاور عليه لكن بلا طائل . وتنهض قبيحة متصابية لترقص وحدها على أنغام سليم الحجر وقد طالت من النشوة لحى الرجال إلى ركبهم . ومن طاولة صاحب المطعم ومدعويه، تأتي قنينة شمبانيا إلى طاولة الجمل، وفتياته، ويتولى جوي مساعدة النادل على توزيع المقادير، مبقيا على حصة الأسد منها، بحجة أن النساء لا يعرفن قيمة الشمبنيا، ولا أي مسكر آخر غير ؟؟؟

وتصعد النشوة بـرأس جـوي فيـأخذ زكيـة لـيرقص معـها، أو يراقصـها، وربما يرقصها، ليراهـا الجمـل علـى الطبيعـة . حينـذاك فقـط يتبـاهى جـوي بطوله، وخلفيته لعين سرية مغرمة بالخلفيات، فيغمز صاحبه لجوي من بعيد . أما جوي فإنه يتباهى بأن في حوزته مجموعـة من النساء يستعرضـهن أمام جمـهور الملـهى . وربمـا كـانت لـه مهمـة سـرية مـن وراء سـنام الجمـل، ليضـاعف أجـره، فيـأخذهن واحـدة بواحـدة . أو اثنتيـن مـرة فـي الأسـبوع، ولساعات قليلة بحجة التسوق يكـون فـي الحقيقـة قـد عقـد مواعيـد عليـهن . ولحذره الشديد وتقديمه كل التسـهيلات للجمل، لـم ينازعه أحـد فـي مكانـه . ولأنه يعرف مقدار ووقت غضب، وكيد، وخبث الجمل يقدر أيضا أين ومتـى يرخي، ويشد . وأين يتمادى .

ومن جانبه لا يبالي الجمل بما تراه عينـاه مـن أعمـال صغيرة يمارسـها صعلوكه جوي، لأنه في المقابل يوفر لـه الأولويـة فـي كـل الأمـور، وهـذا يكفيه .

وفي ساعة الضيق يكون جوي المدافع، وأهمها وقوفه أمـام أم منصـور في دفاع مستميت عن براءته من أية إشاعة ترد عن سيده.

وفيمـا تمتـد يـد عبـد القـادر إلـى صحـن الأكبـاد النيئـة، يتذكـر علـة أبـي السيوف صديقه المتوفى قبل أسابيع، وزميل سهراتهم الدائم فيسأل سالم :

عبد القادر : بالله عليك "داير" أعرف "علتو" كانت "شنو" ؟

سالم : علته علة العصر المريض يا زول .

عبد القادر : أعوذ بالله .

ويسحب "عبد القادر" يده من صحن الأكباد، كأن وباء يوشك أن يحل به وينكفئ على وجهه منخرطا في بكاء، اختلط بالسعال.

وينهض الجمل من بركتـه، فقـد طـال وقـت نياخـه فيـها، ويعـرف جـوي وقتها أن الجمل يريد إكمال البرنامج في بيت السهرات، لـيرى إلـى فعاليـات الوجبة الجديدة من البضاعة، ويميل الجمل وهو يخـرج بموكبـه علـى جـوي الذي بدا منشغلا بدفع الفواتير مغمغما :

الجمل :الطاولة حاضرة بدارنا يا جوي ؟

جوي : طويل العمر فرناندو، وبابو، ونظام قد أعدوا كل الأمور .

وبلحظة يفتح التلفون المتحرك "MOBILE TELEPHONE" مناديا :

جوي : آلووو ؟ سالي "GIVE ME - أعطني" فرناندو" .

وينخفض صوته تدريجيا حتى يتلاشى، وهو ينزل درجات الملـــهى وراء الجمل، ورهط الفتيات المتماوج من خلفهما . وتعرف الفتيات وقتها أن وقت اللهو لهذه الليلة قد انتهى، وقد بدأت ساعات العمـل الجـاد . فعلـى كـل منـهن واجب تقوم به، بين رقص، وعـرض، ونـوم، وتمـارين لا يعرفـها غـير مـن دخل بيوت السهر الخاصـــة، مـع الجمـل . أو مـع غيره مـن فصيلـة الثـيران المهجنة .

أمـا علـى طـاولات الملـهى، فقد انتعشـت الأحـاديث، ودارت الكـؤوس، واهتزت البطون، وصفقت الأكف، وقرقرت الأراغيل . فانتشـــى الجمـع ولـم يعودوا يميزوا فـي هـز الأرداف بيـن الراقـص، والراقصـة . والجميلـة مـن القبيحة، والبدينة من الرشيقة، وذات اللحم المكشوف، وأم الشعر المسـتعار . فالجمع خليط من "كوكتيل" الأجناس، والطباع .

بئر الأغا

عندما وصل نهال إلى حافة البئر التي تستقي منه نساء القرية، هالته الفتحة الكبيرة لفوهة البئر، وكان حتى ذلك الوقت يعتقد بأن الآبار لها فوهات ضيقة خشبية تسرّب المياه منها، بينما أدهشته تلك الفتحة الواسعة التي رآها من مسافة بعيدة قبل الوصول إليها، فلم ينكر أنه كان يستهجن كل من يصف فتحة البئر تلك .

وهاهو قد وصلها، وبدأ يتحاشى الوصول إلى مقدمة فوهتها، فماء هذه البئر مخصصة لسقاية الماشية وغسيل الملابس فقط، لأن الماء فيها له مذاق مرّ غير محبذ للشرب لهذا لم يعجب من طابور الأبقار الذي تصادف وجوده قرب الماء .

وكان من أسباب تحاشيه الوصول لفوهة البئر أيضاً، هو خوفه من نطحة بقرة، أو ثور في هذا الطابور، فلا يجد نفسه بعد لحظات من الانفعال إلا في قاع البئر . ولم يُرد تخيّل ما سوف يلاقيه في الأسفل، هذا إذا ما وصل دون غيبوبة إلى هناك لأن ما سمعه عن وجود أفاعي كثيرة تقوم بحراسة نبع الماء تحت .

وبطيران سرب من الحمام من أعشاشه المتعددة حول محيط الفوهة، عاد نهال إلى وعيه، وتبادر إلى ذهنه كيف يعيش النقيضان الحمام المسالم، والثعبان رمز الشر، والغدر – في مكان واحد . لعل بعض فراخ، وبيض هذا الحمام هي طعام للأفاعي لا محالة .

ولأنه لا يشتهي لأحد ميتة شنيعة في بئر كهذه، فإن كثرة الحوادث التي سمع عنها، جعلت بعضها تتوارد له من حكايات الجدات، واصفات العذاب الذي يلاقيه الغريق تحت، حتى من جرّاء رفعه بحبال الدلاء، وتمزّق، ملابسه، وأجزاء من لحمه . بل إن خيال الجدات وصل إلى وصف الثقوب التي تحدثها الأفاعي في جسد الضحية، جعل نهال يشمئز كثيراً، وتخيّل

سماع أنين حبل السقاية، وهو يحز حوافي الحجر التي نحتها منذ زمن وهي تحمل الجثة الغارقة، وتراءت لعين خياله الحجارة المحيطة بالفوهة، وقد تداخلت الحبال فيها كأنها قلائد مصاغة بيد صائغ ماهر، أو نحات مبدع .

ولم يدر لماذا قفزت شخصية الأغا حسن أمامه فتخيلها هي التي رفعت بحبال السقاية لتوها، وقد تمزقت ملابسه، فكم تمنى نهال أن تكون هذه الميتة للأغا، صاحب هذه البئر . لما سمعه من حكايات عن جشعه، وعن تنكيله بالنساء، وخصوصا الصغيرات منهن . حتى نساء الرجال من ضحايا حفر البئر . فقد سمع مرة المربية ريما وهي تصف لجدته، كيفية توريط الأغا لها، والتغرير بها عندما جاءت تشتكيه لجدة نهال، لكن الأغا حسن زوجها لخادمه لتعيش قريبة منه .

وقد حاول نهال التغاضي، وعدم التذكر تفاصيل المحادثة . لهذا قام لتوه بلا ممانعة بالاتجاه إلى حافة الساقية التي تصب فيها الدلاء لاستسقاء المواشي، وغسل وجهه بالماء، فأفاقته برودتها، وأعادته لوعيه، فحسد الأبرياء على حياتهم . وسار باتجاه الهضبة المعشوشبة مستمتعا بربيع الخزام محاولا إنشاد قصيدة سكنته بنوازعها . لكن الهاجس لم يتركه حتى في إبداعه للقصيدة من الابتعاد عن مقارنة صيد الأفاعي لبيوض، وصغار الحمام، وبين "الأغا حسن"، وأفعاله الرديئة في صيد النساء الصغيرات . وتساءل نهال في سره:

نهال : وماذا يكون موقف زوجته زلفة من كل هذا يا ترى ؟

وألحت ذاكرته عليه ليسمع حديث ريما لجدته وهي تشتكي الأغا لها :

ريما : كنت أرضع ابنه برضاعة حليب البقر، وقد وقفت مستندة إلى مهده . وكان الأغا قد خرج للصيد حاملا معه "جفتته" بندقية صيد بماسورتين . اصطنع العودة لأخذ خراطيش العتاد التي نسيها، وكانت توضع غالبا في الغرفة الداخلية لغرفة النوم، التي لا يدخلها الصغار . ولم أكن أدخل غرفة نومهم، إلا بعد مغادرة الأغا البيت، حتى إذا بكى علاء

ابنه، عند ذاك تحلّه أمه زلفة من المهد،وتقمّطه، وتأخذه إليّ لأرضعه في حضني .

ولما عاد الأغا فجأة، جفل كلانا أنا والطفل، وأردت أن أخرج، فبادرني بأنه لن يتأخر، فسوف يخرج حالما يتناول الخراطيش من الداخل، ولم أحس بعدها إلا بغطاء دافئ يحتويني من الخلف . ولما حاولت التملص أمسكني بود أبوي من كتفي، سائلاً عن علاء، مناغياً إياه . فاطمأنت نفسي له خصوصاً وأن الدفء الذي أحسسته، لم يكن إلا دفء جسده من مسافة، ولما انشغلت عنه، زادت مداعبته لابنه مقترباً مني وبتلطف أبوي، أو بحنان قديس متصلب، متصنّع الوقار والعفة. وأحسست من وقتها أنه قد لا مس جسدي فعلا، ولم أبد أي رد فعل لإحساسي بالأبوة. لكن الدفء الذي غمرني من فوق إلى تحت خدرني . فذاب كياني . وتجاهلت الوضع متيقنة أن الأمر ليس سوى تخيل، وسوء تقدير مني . وأن ظنوني ليست في محلها، فكيف بأغا مهيب أن يقترب مني، ويلاعبني كما يلاعب زوجته ! ولكن عندما مد يده إلى صدري من تحت إبطي أيقنت أنني إحدى البطات التي يصيدها ويمسكها من تحت جناحيها فلا ينتهي أمرها كفريسته فقط، بل يكون قد أوعز للطباخ بشيها على النار لكي يمزمز بها، وهكذا مزمز بي الأغا يومها .

الجدة : يا بنتي ألم تنتبهي له . أقصد ألم تكن لديه محاولات قبلها.

ريما : لا أعرف ولكنني لما اطمأننت له أخيرا كنت أحسب أنه لن يفعل شيئا فقد سبق أن اقترب مني على مرأى من الحلاق الذي جاء ليقص شعر ابنه عمر وقد حملته على كتفي، ولما كان الحلاق يدور في كل اتجاه يلف فيه رأس الطفل، كان الأغا يتبعه كاللصيق، ليدله على أماكن أغفلها الحلاق في رأس الصغير . ويزيد اقترابه مني أكثر في كل دورة فأحس بدفء لم أميز خطورته وقتها، لكوننا لم نكن في خلوة فلا خوف . أو هواجس خاصة . ورغم أنه كان قد ضغط على صدري مرة، وعلى عجيزتي مرة أخرى، إلا أنني لم أكن أقدر إلا على أنها إحدى الهفوات .

فكيف لعفيف كبير، وشريف . وشخصية متسلطة، ومتعالية كي ينظر إليّ كإحدى المتاع التي منّ عليها بتربية ابنه .

الجدة : لكن النساء، والفتيات يعرفن بالفطرة معاني لا يمكن لهن ترجمتها، فهل أحسست في نظراته غرابة ؟

ريما : ومن أين لي أن أعرف، لأنني لا أجرؤ أن أنظر في عينيه مباشرة، حتى عندما قلبني أمام مهد ابنه، وجرحني . آه نعم كنت عندما أنقل الطعام إلى السفرة، يكون هو جالسا قبالة الباب، وأحس بنظراته منذ أن يحيطني الباب بإطاره، وكأنه يقيس كل مسامة في جسدي من أعلى الرأس، وحتى أخمص القدم، وعندما أستدير لأخرج، كنت أحس بأن نظراته تلتهمني من القفا مثل لهيب سياط نيران مستعرة .

ولم يطل حقد نهال طويلاً وهو يسترجع شكوى ريما الذي سمعها قبل أيام، وهي أحد الأمثلة الكثيرة على ما اقترفه الأغا حسن من ذنوب تجاه نساء القرية، وأبعد نهال تعلقه بأمنيته في أن يرى الأغا ممزقاً شرّ تمزيق في بأنياب أفاعي البئر، لأن واعزاً آخر حذّره من الظنّ دون التحقق . لكن صراخاً ناعياً قام في البلدة حقق كل أدعية المغدورين، والمغرر بهن من ضحايا الأغا حسن . فقد قُتل الأغا حسن بطلق طائش، عندما كان في رحلة صيد، هو ومأمور المخفر .

وبعد اكتمال الدفن، التعازي، تم التحفظ على القضية، وقيدت الحادثة باعتبارها حدثت قضاء وقدرا .

ضيف المهرجان

كان الممثل العائد إلى وطنه في ضيافة المهرجان المسرحي، قد قـام فـي جولة منفلتة، مع مرافقته الممثلة الهاوية الصغيرة، فقد كـان مـن أمنياتـه فـي الغربة أن يركب حافلة نقل الركاب ذي الطابقين . وعند موقف الحافلـة،يجـد جمهرة بسبب توقفت الحافلة، وهـو بحاجـة لقطـع غيار، لكـي يعاود السـير، وعلى الركاب الانتظار حتى مجيء قطعـة الغيار من المصلحة العامة لغيـار أدوات السيارات، والشحن . ويتنـافس الناس في التعليق المّر، والتنكيت على النفس . وتصل حافلة احتيـاطية، وعندما يهم الناس بالصعود،يصـدر صـوت مـن المـذيع الداخـلي للحافلة منبهاً الركاب بتحاشي التحـدث بـأمور شـخصية لأن الحافلة "WIRED" مرصودة بالمكروفونات لأغراض إحصائية اقتصادية لا يجوز أن تتداخل فيه معلومات عائلية، واجتماعية !!!!

وتندفع مـع الممثل الضيف عائلة أم وابنتاها الصغيرتـان، وتعجـب البنـت الصغيرة بملابسه، لكن الأم تخرج لها بلوزة اشترتها لتوهـا مـن "البـازار"، في سـوق "القصبـة" وقـد فرحـت بـها لأنـها خالية مـن شـعار الزعيم علـى أكتافها، وقد زينت بالـ"بولك" الـزاهي . وتعلـن للزائـر سعره بـالدولارات لرخصـه، مشيرة إلى أجزاء العملة بالاسم السري الـذي صـار شـائع التـداول حتى لدى عملاء السلطة بجملة الورقة الخضراء . ربما لأنها تتصور ذاكـرة الضيف، لا تحتمل إعـادة التقسيم بيـن العملـة المحليـة التـي انحطـت، وبيـن العملة المتسيّدة. ويضحك الممثل الضيف لعدم استيعابه المعادلـة، خصوصـاً وإن جملة الورقة الخضراء غريبة عليه، ولكنه يسـعد لفـرح المواطنـة علـى بضاعتها،ويقول لها :

الممثل : في المجر أيام الخير هذه بُعشر المبلغ الذي اشتريته، أتذكر أنـه كان بثمانين فورنتاً لا غيرها .

ولكنه وبعملية حسابية سريعة، يكتشف أن ما قاله ربما ينافي الحقيقة الآن بعد الغلاء الذي اجتاح تلك البلدان من شرق أوربا.

ومن فوق في الطابق الثاني للحافلة، يرى الزائر قصور الرشيد، معلقة فوق حدائق بابلية، وفي المقاعد زميلات بأردية وردية، وفي المقاهي أراغيل، ودخان، وشطرنج، وطاولات نرد، ودومينو، وبلياردو، وهاهم أصحابه محسن، وراوي، وغساني، ونوار، وجاك، ودموو، وشرف، وعاريبو، وقلعجي، وصباح جمعة، عمر فاروق . ويعجب الممثل في كيفية جمع كل هؤلاء في مشهد حقيقي، يعرف أنه نوع من خداع البصر، لأن أغلب هؤلاء قد هاجر إلى المنفى منذ أكثر من عقدين . غير أن بائع الكبة دنخا ما زال واقفا، وإلى جانبه أديب، يلوك حبة كبة في فمه دفعة واحدة، وفي يده ويمسك بثلاث صمونات، ويحمل في يده الأخرى كيساً من القليجة التي كان تتقن تصويرها وخبزها والدته مديحة، أما عبد الأحد صاحب السندويش فقد غفى لأن أحداً في هذه العشية قد اقترب منه، وهو بانتظار السكارى، وبعد أن ينتهي دنخا من كبته الساخنة، ويذهب ليغفو في بيته .

وهاهو السكير مساء خميس الملقب بـ"موطة"، ينام في ساقية ماء قرب مطعم زاهي، كعادته كل خميس، ينافسه على هذه الهواية كل من الشعراء وليد، ونبيل، وجليل، لكي يصلوا كلهم لما وصله الشاعر الحريصي، من إبداع ومصير ، ولكن هيهات لهم، لأن واحدهم لا يترك الساقية إلا بلكمات من ستار بن سعيد صاحب المقهى الأعرج .

وهاهو مقهى سعيد قد خفتت أضواؤه، وقد جلس في أحد أركانه كل من "علي، وعلي، ومحمد، ومحمد، ومحمد، و، و، و"، ورابع كل ثلاثة يكون "ف. جاكارتا" يلعبون الدومينو كما تركهم منذ أن غادر البلاد، ويعجب الممثل من رؤيته لكل هذه المشاهد، وكأنها حية، وليست من بنات الخيال، ويقول الممثل الزائر في سرّه :

الممثل : يبدو أننا في أحد عصور الفضاء . أو أن متحفا للشمع قد أقيم هنا في مكان مقهى مجيد الشهير .

غير أنه ييتئس لخلو المكان مما يصور شخصيته، فهل كان وقتها بلا شيء يميزه، أم أن شهرته في الغربة قد خلقت ضدّه مواقف خاصة استثني من التصوير المتحفي هذا، وربما لو نزل إلى المقهى الآن لجهله ستار الذي كان يداريه كثيراً، ويعطف عليه لنشاطه، رغم إعاقته، ويتذكر الممثل، حلمه ليلة أمس حال وصوله إلى الفندق، كيف ذهب مباشرة إلى مقهى سعيد، فلم يتعرف عليه ستار، ولم ير سعيد فخشي أن يسأل عنه، إذ ربما يكون قد مات . أما أخوة ستار الصغار فليس من أثر لهم، ربما نفي أحدهم، ومات الآخر في الحرب، وفقد الآخر، وليس من أثر له، فلماذا يسأل عنهم، عليه فقط أن ينظر من بعيد لهيبة ستار، ويقارنها بما كان يتخيله عنه حتى ليلة أمس، هو بعينه، ولكن بشعر أبيض، وتجاعيد كثيرة، وقد احدودب ظهره أكثر، وزادت عرجته . وازداد سماره، والتم حول صغار هم أولاده كما يبدو، ولكنهم قريبي الشبه من أخوته محمود، ومحسن، حميد .

وانتبه الممثل لغياب غيرهم ممن لم يشاهدهم في المقهى كممثلين، في متحف حي، أو متحف الشمع الذي يراه من الطابق الثاني لحافلة نقل الركاب الذي تصادف أن يتأخر في رأس الفرع لمدخل شارع الحمدون، ربما لوجود اصطدام، أو عطل سيارة، هناك مثلا حسيب صديق الطفولة، وفارس، وفارس، وعلاء، وعلاء، وعزاوي، علي أكبر، وعبد الأمير، وقاسم . ربما لأن كل من ذكرهم الآن انشغلوا عن المقهى في أعمالهم الفنية، واختص المقهى بالشعراء، والآداب .. إضافة لل .. ولل .. ...

ويأتي محصل التذاكر، كأنه جني نبع فجأة، وقد وصل الدور إلى الممثل، فأخذ المحصل يمازحه بلطف، ببعض صفات مهنته، وكلمات مشهورة من أدواره . وعندها تتعرف السيدات علىٰ مكانة الممثل في الشاشات العربية المتشضية في فضاءات السديم، فيتهافتن عليه مثل الفراشات، وتريد الأم أن تأتي ابنتها للسلام على الزائر، وأخذ صورته لتجمع عليها تواقيع المعجبات، ولكن ليس لدى أحد "كاميرا"، فتقترح النساء وضع توقيعه على أغلفة البضائع التي اشتروها، من أسواق الأحد والثلاثاء والصدرية .

وأثناء هذه الفعالية ينبري المحصّل إلى الضيف فجأة ليطلب منـه بطاقة الركوب فيخرج الممثل له دفتر بطاقات وردية، وآخر لبطاقات زرقـاء، مما كانت متداولة قبل هجرته، ولا يدري من أين جاءته، وقد فاجأ اللـون، والبطاقة العيون الفضولية، فيحاول محصّل التذاكر من جهتـه، تنبيه الممثل لإخفاء هذه الدفاتر، لأنها تحمل شعاراً قديماً، ويقوم بافتعال قضية تغريمه لعدم قطعه التذاكر، من أجل أن يفوّت الفرصة على منصتي المكروفونات، للتمويه على أصل الموضوع، فيقول له وهو يفتعل الحوار :

محصل التذاكر : عليك أن تدفع غرامة عشرة دولارات .

فيفرح الممثل، وبينما يحاول الدفع، يضيف المحصّل بافتعال أوضح من قبل ما دامت المايكروفونات قد فتحت آذانها على آخر درجاتها :

محصل التذاكر : لكن علي أن أسجّل اسمك الكامل لكي نضعه في نشرتنا التي تعلن .

وهنا يتوقف الممثل عن فعل أي شيء، ويطلب من المحصّل إغفال ذلك لعدم انتباهه إلى دور المحصّل في مساعدته على التمويه . ولأن المحصّل قد دوّن المخالفة في استبياناته، وليس من المحتمل في هذا التوقيت، وهذا الحافلة بالذات تغير ما تم، وقد تورط كلاهما في مسألة خارج السياق العام، فمَن يمكن أن يكون مخالفاً غير الممثل، أو بدلاً عنه في هذه الورطة ؟ .

ويعطيه الممثل اسمه الأول، ثم يتراجع، ويفكر عما سيقوله مستضيفوه ويطلب إلغاء الدعوة ضده، وكأنه في أحد كوابيس كافكا . ومع إصرار المحصل على استكمال البيانات، يعلن الممثل اسمه للمحصل بأنه فلان ابن فلان الفلاني، ولكنه عندما يبحث عن جواز سفره لا يجده في حقيبته، ويتذكر أنه قد تركه في صندوق أمانات الفندق، ويبحث الممثل عن شعار المهرجان المميز الـ "BAGE" الخاص، فلا يجده .

ويبدأ العجب لدى المحصل، ومن حوله، ويظهر الشك في عينيهم . فيقول الممثل إن له مؤلفات عدة، وهذا اسمه على آخر كتاب جلبه من الغربة. وعندما يبحث عن الكتاب في حقيبته لا يجده، ويؤكد حينها بأنه

مدعو من قبل إدارة المهرجان، ولديه صورة مـن خطـاب الدعـوة، فـلا يجد الخطاب أيضـا .

كل هذا والعجب يبدأ بالتزايد لدى المجتمعين من حوله . وقد تعمق الشـك لديهم ليصبح يقينا، وهو أن هذا الذي أمامهم ليس إلا مـدع مزيـف قد انتحل شـخصية الممثل المشـهور . ويلاحـظ الممثـل مـن طـرف عينـه أن بعـض السيدات قمن للتو بتمزيق تواقيعه مـن علـى الأكيـاس، وأخريـات يدعكنـها، ويحشرنها في زوايا مهملة تحت مقاعد الباص، ورأى واحـدة تحشـر كيسـها الممزق في حذاء جارتها.

وأخيرا يتذكر الممثل ضيف المهرجان بأن عنـاءه كلـه لا لـزوم لـه، وإن حرجه قـد انتـهى، لأن مرافقتـه هـي الشـاهدة الحقيقيـة علـى صحـة كلامـه، وسلامة وضعه، وهي التـي تحمـل كـل الوثـائق الثبوتيـة عنـه، فتدور عينـاه لتبحث عنها، فلا يجدها إلى جانبه .

وبجهد يراها قد توارت خلف راكبات قرب الباب منتظرة وقوف الحافلـة في أقرب موقف لكي تقفز هاربة، فيشير إليها، وبسرعة يصل إلى موقعها . لكن هذه تنكره، وتتنكر له، وتؤكد أنـها لا تعرفـه . بـل إنـها لا تعـرف عـن المهرجان المزعوم شيئا، وهي سكرتيرة، وليست ممثلة فما لها والمهرجانات المسرحية، وسرعان ما تقفز مـن البـاص مـع اقترابـه من محطـة الوقـوف، وتضيع في الزحام .

وينتبـه الممثـل بـأن الممثلـة قد اخـترقت الجمـوع المتزاحمـة أمـام بـاب الحافلة، وركضت لتدخل في الزقاق بين عمـارة الشـقيقان، والجـدار الخلفـي لفندق الشطين ، حيث مكتب طيران لوفتهانزا يومها، فيتذكر أن في منتصف هذا الزقاق مدخل البناية الجانبي للعمارة، ومنها كثيرا ما كان وأعضاء فرقة مسرح الوقت، يدلفون ليصعدوا إلى الطـابق الثـالث حيـث مقـر الفرقـة، وقـد عملوا فـي صالتـها الكبيرة منصـة تمرينـات، للأمسـيات الثقافيـة . ويحـاذي الفرقة في نفس الطابق فرقة المسرح الشائع، بمسرح الريـادي ذي الخمسـة، وخمسون مقعدا فقط . تذكر آخر فعالية مشتركة أجرتها الفرقتين، فـي مئويـة

بريخت . قدمت الفرقة تمارين على مشهد من مسرحية القـاعدة والاسـتثناء .
ولم ينس حتى الآن زميله الرائع في التحضير للعمل، وهو خ. الكاظمي الذي
لا يدري ما مصيره ؟ وهل هو على قيد الحياة، أم مات في سجون الاحتراب
اللبناني ؟ أم أن الاجتياح الإسرائيلي أخذه معه إلى غير رجعة، فدهسـه هـو
وفنه تحت جنازير الدبابات . يبـهت الممثـل لـهاجس كـبر فـي داخلـه فجـأة :
أيكون مصيره اليوم مثل مصير الكاظمي؟ ولكن الفرق أن يموت في وطنـه
الذي دعي إليه لحضور المهرجان .

ويبقى الممثل الضيف عالقا بين سماءين تحتهما هاوية، ويـرى مـن فـوق
حبل المشنقة وقد تدلى ليلتقط رقبته بكل حنان، ووطنية .

أما عيناه فمعلقتان في السـماء، تتـابع أوراقـه الثبوتيـة وهـي تتطـاير فـي
دوامة غبار صيفية، ترتفع بعيدا بما يثبت هويته، بينمـا يتدلـى حبـل المشـنقة
من فوق طالبا عنقه أكثر فأكثر .

الباخرة إخلاص

عند الحدود الدولية توقفت باخرة شحن صغيرة، لا تستوعب أكثر من خمسة آلاف غالون، ريثما تنطلق في الغد للمياه الضحلة حيث لا منافسة لها، من قبل السفن الكبيرة في المياه الدافئة . بل إن تلك السفن تحتاج لنقلات البواخر المكوكية، لتزويدها بأطنان من الذهب الأسود . ولقد فاجأت الشمس الباخرة إخلاص بالنزول غاربة عنها، وابتدأ الليل يرسل حجافله لكي تلاحق الخيوط الأخيرة للشمس، وتقتفي ذيولها المتكاسلة في رحيل متراخ .

إخلاص هذه رفعت علماً لدولة غير معروفة، ما يزال اسمها موجود على الخارطة الجغرافية، ومع وجود الأعلام والاسم اطمأن لطفي بأنه سوف يبيت في مركز متوسط بعيد عن الخطر الداهم فيما لو انجرفت لأي من الطرفين .. وبعدما تأكد لطفي من إنزال المرساة الكبيرة والاطمئنان على طاقم السفينة العامل، والتحاور مع الرّبان حول معرفته للطريق البحري . والمسالك التي سوف تقود إخلاص إلى ميناء المفتية، أكد الرّبان علمه بكل خطوة واستعرض معارفه أمام لطفي الجديد في المهنة .

أجل فما بال مهندّس معماري ناجح، وهذه المهنة الجديدة لولا دوافع كثيرة أجبرته على هذا المسلك .

ويتوه لطفي في أحلامه الشاردة وهو يسمع إلى الرّبان، بين آمال عظام تنتظره بعد اكتمال صفقاته هذه، وبين المستقبل القريب له، ولصغيراته الثلاث . مدارس راقية، ومنامات نظيفة، فرش أسنان، وحليب أطفال، وألعاب كثيرة . كل ذلك جعله ينصاع لرغبات زوجته وجدان، وليس غيرها. أما ما طلبته الزوجة، وأمها فلم يجهد نفسه في تذكرها، رغم أنها أول من سيقرّعه بها، ولكنه احتاط للأمر فقد سجلها في ورقة أخفاها في محفظته . وما أن انتبه لطفي لنفسه حتى وجد باب المقطورة مفتوح على نصفه،

والرّبان غير موجود، فلربما ذهب الرّبان، بعد أن استأذن، وأجابه هو دون انتباه منه . فقام ليقفل باب المقصورة، ويأوي لفراش محموم بالأحلام والآمال :

ويبدأ أحد أحلام لطفي المتقطعة، عندما يكون منتظراً لماء الغسيل ليغلي في الحمام .. وليس هناك من طوس*، ولا صابون، ولا مناشف . ولكن عليه أن يتحمم جبراً، وقسراً، وعندما يلف نفسه ببقايا شراشف، يبقى الكتف عارياً فيغطيه بمنشفة صفراء يراها للتو، ويفكر في نفسه بأنه رأى مثل هذه المنشفة في مكان ما ربما في ثلاث مدن مائية هي استانبول، أثينا، والبصرة. ويخرج للتو .. ولكن إلى أين في هذه المنشفة الصفراء، فعليه الانتظار ريثما تأتي وجدان التي يعرف أنها تتأخر دائماً كما تتأخر الزوجات عادة أمام المرايا، حتى اللحظات الأخيرة قبل الخروج حتى ولو كان الذهاب إلى البحر، حيث سيمحي ماء البحر المالح كل بودرة ملصقة، ودهان ملطخ على الوجه، وأصباغ في الشعر .

فلقد كان عليه أن يلهي نفسه بحلاقة لحيته، ولكن لا ماء حار هذه المرّة أيضاً، والسبب هو تهاون وجدان، وسوف يتأخرّ هو في الوصول إلى العمل كالعادة دونما اعتبار من وجدان، فعليه أن يوصلها قبل كل شيء، وإلا قلبت الأمور رأساً على عقب . حتى قبل توصيل نسرين، وسيرين، وسارة . أربع أناث حوله وهو الوحيد بلا مرافق من نوعه .. وواحدة أخرى تعادلهن بأربعة أضعاف هي أم زوجته مقبولة، لكنها ودعت الدنيا قبل عامين فقط. أمه هي الوحيدة تماثل بناته الثلاث في الرقة، والوداعة، والحنان .

وبانتظاره لوجدان زوجته صبر لطفي مع البنات في موقف السيارات بعد نهاية الدوام، لأن وجدان تفرط في إخلاصها، وعندما تظهر مع مجموعة سيدات معها، لا تشعر بلطفي، وهو يقف مع البنات في حرارة الثالثة عصراً، وقد تبللت كل ثيابهم من طول الانتظار، وبلا تحية تتأفف من طول الاجتماع الحزبي، وترفع نافذة السيارة، وتطلب تشغيل جهاز المكيف

حالما تجلس في السيارة، متناسية أن سيارتهم ليس فيها مكيف مثل السيارات الرسمية التي تأخذها غالباً .

وتتخاصم وجدان مع نفسها، وتندب عيشتها على هذا الحال، ولا أحد يجيب حتى الصغيرات اللواتي يخشين عدم تأييدها . وفي غمامة الحزن، والكمد يرى لطفي سيارة حليم البيضاء تمرّ أمامهم، وهي تحمل زوجته زاهية، وحماة لطفي صدّيقة والمقامر عمران بن بطاطة، وحليم ينطلق بهم بين الغمام، فيتذكر أن أبا الحلم قد رحل نهاية السنة الماضية . ربما هروباً من زوجته زاهية هو الآخر، فذبلت من بعده، تلك التي كانت تزهو في كل المجالس، وتتفاخر في تسليط انتقادها لزوجها أمام الجميع، في تهويمات لا تعرف كيف تنهيها .

ولكن لماذا يرى لطفي زاهية مع الأموات الثلاثة، حليم، وعمر، ومقبولة. ربما لأنها لا تزال تسيطر على عقل حليم وقلبه، ولربما ما تزال روحه، ورائحته تحومان حول زوجته زاهية . أو أنه مشتاق لها، ويريد أن تأتيه . فماذا تبقى لها بعده . فهل استجابت السماء لدعاء زوجها حليم، ومنحته رخصة لأخذها إليه في زقة يقودها ابن بطاطة الطبّال المشهور .

وانقطع لطفي عن متابعة المشهد الذي أمام طنطنة ثرثرات وجدان زوجته وقد بدأت تنهر البنات واحدة تلو الأخرى . فيغيب عائداً إلى حلمه يتابع أثر السيارة البيضاء، لعله يستشف ما قصة حليم، وزوجته زاهية التي ربما تكون قد ركبت معه في رحلتها الأخيرة، ومقبولة حماة لطفي تزغرد . ولكن السيارة تقف فجأة أمام بوابة عالية، والبيت "القصر" عال الجدران لا تراه العين الطبيعية فكيف لعين حالم يقظة أن تتخيله . ويقول الآخر في حلم لطفي، الذي غالباً ما يدعوه باسم لطيف :

لطيف : آه عليهم أن يفتحوا صندوق السيارة الخلفي ليرحلوا الكتب وأشرطة الكاسيت، قبل مجيء الشرطة السرية، وعلى كل منهم أن يرفع بيده ما عدده عشرين كتاباً ..

هكذا يقترح لطيف، نصف لطفي الآخر الحالم في منامه، كحل سريع، غير أن أحدًا لا يستجيب لمقترحه، لعلمهم بمدى ثقل الكتب، وزنًا وخطورة،

وبخاصة تلك التي تحمل أفكارًا هدّامة . أو تلك التي تحمل تصاميم هندسية لمعمار فخم . أو كتب القانون المثقلة بمواد العقوبات . ولكن جُهينة أخت لطفي التي ماتت قبل عشر سنوات تظهر فجأة بدلاً عن ضمير لطفي لتحاور الثاني في نفسه فتقول :

جُهينة : وما الضير في ملء الحضن بالكتب لكي تتسع أكثر ؟ إن ما فيها أهم من الأكل . فيها ما يعلمك الدفاع عن حقوقك، ويهذّب أخلاقك، ويعلمك الجدل والمنطق، والمحاججة، وووو .

لطيف : إذن فعليهم الآن فتح الصندوق . هل هناك مفتاح يناسب مثلاً ؟

وتقترح زاهية زوجة حليم التي تعي أكثر من غيرها بالطبع حلاً مناسباً، ربما لأنها ما تزال بين الأرضين، وهو إدخال مسطرة قياس في حافة الصندوق، هي في الحقيقة نوع من أنواع الكروت الممغنطة، الحديثة بدلاً عن المفاتيح العادية .. وما هي إلا محاولة واحدة حتى يفتح الصندوق، ويسرع لطفي قبل غيره لملء حضنه، الذي هو منشفته الصفراء بالكتب والكاسيتات، متجاوزاً كل تحفظه، ووقاره بعد أن شعر بالأمان، واطمأن من نهاية المطاف، والخلاص . ومشى تاركاً خلفه الرهط في مهمة ظلّ الآخرون في خياله مستمرين عليها . ويدخل لطفي وراء حليم، فيرى أنهما قد انتقلا إلى حالة جديدة، إذ سرعان ما وجد لطفي بأن حليم قد دخل مدرسة بدلاً من القصر العظيم، وخلفه وأمامه فتيات وأولاد، بينما تتقدم الجمع سيدة إنجليزية متوسطة العمر جاءت لتتعلم هي الأخرى الفرنسية فسار حليم أمامها إلى الفصل الفرنسي مستعيداً مهنة المحاماة القديمة التي تعتمد الفرنسية، كلغة هامة لتعلم الحقوق، وقوانين المحاماة، وتداول مصطلحاتها في المحاكم.

ويرى لطفي أن حليم قد دخل الفصل ويتوجه إلى حيث تجلس أخت لطفي جُهينة بين الدارسات، فيعجب لطفي من سرعة وصولها إلى الفصل قبلهما، وبل إنها استبطأت حليم كثيراً :

جُهينة : عشرون عاماً وأنت تغيب عن الفصل ؟

حليم : لم أسافر إلا قبل سنتين .

جُهينة : أهكذا كان الوعد ؟

ويفكر حليم في حسرة كبيرة :

حليم : سنتان وأنا أبحث عن جهينة، ولما عجزت، ونفذت حيلتي . ترافعت كثيراً، حتى قبلت شكاوي لحضور زاهية . وها هي جهينة تظهر اليوم فقط . فيا لي من تعيس . لم نهنأ هناك، وسوف نعيش قلقين هنا أيضاً . هل كُتب علينا العيش مراقبين .. لا نعيش إلا وأعين أخرى تراقبنا ؟

جُهينة : ما بك ألا تجيب ؟

وتشير جهينة إلى مدرستها التي كانت مذيعة في القناة الثانية الفرنسية . بينما تُخرج لحليم ساندوتشة ليأكلها معها، كانت قد أحضرتها له خصيصاً . ويداهم حليم شعور بالشبع على غير العادة فقد أكل لتوه كثيراً من "الشكولاته" التي جلبتها معها زاهية زوادة لسفرها الطويل ولكنه لا يستطيع التهرب من جُهينة أبداً، ومع هذا فالأكل يغريه، ورغم أنه لا يميّز ما هو الأكل ولا طعمه، إلا أن فكرة ملء المعدة استولت عليه هكذا . ومع اللقمة الأولى يشهق، ويسعل فترتبك جهينة، ويضجّ الفصل كله .

ويستولي على لطفي سعال مباغت، ويكاد يختنق، فينهض من سريره ليتنفس، ولكن دون أن يفتح عينيه وقد حاول كل جهده إبقاء صورة حليم التي يحلم بها وقد صارت تغيم أمامه، وما عليه إلا التشبث ببقايا صور جهينة أخته التي بدأ اليوم التعرّف على سبب علتها، ووفاتها . وهكذا سرعان ما هدأت نوبة سعاله وقد بلع حبة مهدّئ .

وفكرّ لطفي وهو يتابع حلمه، لماذا لم يدع وكيله لطيف ؟ يعني الآخر . أو الثاني فيه لكي يتابع محله بقية القصة في الحلم، لكي ينظر على الأقل لما حوله . وهو يطفو على سطح الماء في باخرة لا يضمن مدى مقاومتها لعواصف البحر لو قامت، ولا للظروف المحيطة التي جاء من أجلها لو حدثت، لكنه طمأن نفسه بكون البحر ليس إلا خليج عريض وهو في أحد ثلثيه الغربية.

وعندما يعود لطفي إلى حلمه يجد الفصل كامل الهدوء، غير أن حركة غريبة تجتذب لطفي فجأة خارج الفصل، فعلى الرغم من متابعته لانسجام حليم وجهينة وانهماكهما في درس اللغة الفرنسية، لا يغفل عما يجري في الخارج، وكأنه طائر محلق فوق المكان، لا تُحجب عنه الرؤية في الداخل والخارج على حدّ سواء . وتسأل المعلمة لطفي عن سبب وقوفه ؟ أو بالأحرى طيرانه وعدم نزوله للجلوس بين طلاب الفصل ؟ ولماذا لا يحمل كراريسه ؟ لكنها سرعان ما تشغلها مهام تصحيح الأوراق، وتقييم الأسئلة .

إلا أن كيان لطفي الداخلي قد تبع هواجسه، وذهب الآخر فيه إلى خارج الفصل وهاهو لطفي يتعرّف على أحد المخبرين السريين الذي جاء ليستقصي وجود الصيد الثمين في الفصل المجاور . فمن يا ترى هو المقصود ؟ إن المحامي حليم لن يضيره تعقب المخبرين السريين له هنا فليس من قوة هائلة من انتزاعه من عالمه "عالم الموتى" لكي تعيده للمحاكمة إضافة لهذا فهو حقوقي حريف يعرف كيف يدافع عن نفسه. إذن فالمقصود هو لطفي نفسه . ويتساءل في خاطره لعلها وجدان قد اشتكت منه فماذا يريدون منه، أليست وجدان زوجته تخدم السلطة أكثر من خدمتها له، ولبناتهما ؟ فماذا يبغون منه . ربما تكون وجدان قد أخبرتهم بمهمته التي جاء من أجلها، والتي لم تكن لتخطر بباله لولا دفعها، وحماسها، وتأكيدها بنجاح العملية . وتضيق الدنيا بلطفي بانتظار أنباء الآخر "الطيف" خارج الفصل لينبئه بالخبر اليقين، لكن الفصل يضيق ولا يعدو أكثر من حجرة صغيرة . أو مقصورة هي وطنه الصغير الذي التجأ إليه أخيراً، يتجول فيه رغماً عنه . بينما يوحي له الآخر بأن المكان ليس أكثر من دكان . أو بيت زجاجي آخر . ويتوجس لطفي من كل شيء حتى لطيف الذي يحاوره، فلربما يكون قد تحالف في الخارج مع البوليس السرّي هو الآخر، كما فعلت السلطة مع زوجته، فيتصنّع لطيف التخفي وراء رأس تلميذ أضخم منه قد يكون شبيهاً لعمّاش الذي يراه في الأحلام دائمًا كالغول الأهوج . أو كمعتوه جاء فجأة، ودون علم المعلّمة فدخل الفصل من غير تأهيل .

ويضع لطفي وجهه في المنديل الورقي بحجة التمخّط . كمن يتحاشى تميّز شخصيته من قبل مخبر . أو كهؤلاء المجرمين اللذين يُلقى القبض عليهم، ويمرون أمام كاميرات الصحفيين، والتلفزيون، ولا يستطيعون التلاشي من الخزي . وإنما يغطون أعينهم لكي لا يراهم أحد، وهم بالأحرى الذين لا يرون الناس . أوهكذا تعودوه، وهذا ما خبره لطفي لا أكثر، رغم أنه لم يتأكد إن كان المخبر سيتعرف عليه . أو سيكون هو مقصد المُخبر إياه؟ ويتساءل لطفي في سرّه هذه المرّة، ودون أخذ رأي "الطيف" الآخر فيه، فيما لو يستطيع حليم المحامي، صهره في الحلم أن يدافع عنه، ويسخر منه الآخر فيه بقوله :

لطيف : وكيف سيترافع حليم عنه، وهو موجود هنا ؟ هل سيقوم بإرسالها بانترنيت عبر الأرضين ؟ وهل الحكّام عندنا هنا سذّج ليصدّقوا دعاوى من هذا العالم ؟ فلو حصل هذا، لكانت سابقة ربما تفيد في أن يتّعظ الحكام، ويحكموا ببراءة المغدورين.

ويحكي لطيف الآخر للطفي وجهة نظر الآخر، فلربما يكون المخبر قد كشفه، وما ذهاب المُخبر أبعد من الفصل، وعدم الدخول فيه سوى تمويه من نوع خاص، فلربما يكون ذهابه إلى الفصل الأبعد، هو نوع من إضفاء الطمأنينة للهارب . أو المشتبه به حتى يكتمل تطويق المكان كله تفاديًا من هروب محتمل . ويصرّ لطفي على اعتقاده، فلربما يكون المخبر قد جاء لمن لا علاقة له به . أو أن المخبر قد وصل فقط ليستقصي أمر مجرم عادي .. ويشير لطيف للطفي، لأحداث مشابهة حصلت للكثيرين من أهله، وأصدقائه.

ويبدأ لطفي التفكيرّ بالهرب . فمن أين ؟ وإلى أين ؟ ليس له إلا سيارة المحامي حليم التي اختفت فجأة فلا يعود لطفي يراها هنا، أما سيارته فقد تركها في جراج البيت عند رحيله وقد حاصرتها المياه من كل جهة، كان قد أحاطها بقماش للتمويه وقد غاب عن بال لطفي بأن بيته كله مكشوف، ومخترق من الداخل .

وينتبه لطفي لكون المياه هنا في الحلم هي مياه شبيهة بالسراب كالمسافة بينه وبين الواقع وعليه إذا ما أراد الوصول إلى سيارته الأصلية، أن يجتاز شارع طويل مثل حديقة عامة، كانت العادة قد درجت في بلاده أن يكتري حمّالا لكي يعبر به المياه المؤقتة تحاشيًا لابتلال جواربه، وحذاءه .

لكن جرس المدرسة يرّن بقسوة، ويتلاشى الكل بسرعة هائلة .

ويفيق لطفي على صوت جرس طباخ السفينة، ومن قمرية المقصورة يرى أن باخرته قريبة من نقطة تفتيش دولية، فلربما تكون واحدة من الدوريات العامة، لكن الذي أخرجه عن طوره أن الباخرة كانت قد زحفت أكثر من اللازم عن الحدود الآمنة، ولولا وجود علم الدولة الصغيرة لكان هو والباخرة قد صارا حطام مع كل من فيها، بقاذفة موقوتة .

وفكرّ لطفي بحنكة أن يناور بمبادرته للتحدث مع نقطة تفتيش ميناء فنداريك . على موجة ال"VHF" التي يسمعها الكل . وضمنهم المفتشون الدوليون، لكي يترسخ الاعتقاد لدى كل منصت، ومنهم المفتشون الدوليون . أن مقصد الباخرة هو ضفة الخليج الغربية، وليس محطة تعبئة المفتية .. ومع هذا لم يرد أحد منهم على طلب لطفي بإدخال باخرته عبر المدخل في الشط المشترك، قاصدًا ميناء أعدبان، ولعجزه عن انتظار الرّد حاول لطفي مخاطبة ميناء أعدبان، مباشرة، ومن شدّة استغراب الحالة في كلا النقطتين أرسل القائمين على إدارة ميناء أعدبان من هو بمقام المستقصي، ليصله بعد يوم قاصد يسأل عن مدى جدّية لطفي في المجيء إلى الميناء، وعندما يطمئن لطفي للقادم يخبره بالورطة التي وقع بها، وليس له سوى ما فعل، وعليهم مساعدته شكلياً لكي يخرج عن مجال صلاحيات النقطة الدولية . ففي حقيقة الأمر إن وجهته المفتية لا غيرها، وفي العودة سوف يؤدي دفع الرسوم لهم، لكن ليس عليه في النداء المسموع أن يدعي غير ما ادعاه مؤقتاً، ولم يعد القاصد بشيء جازم، إذ أن حالة كهذه تحتاج لاستصدار أمراً من العاصمة، ويخبره القاصد بأن الأمر سيطول أكثر من يوم، وعلى لطفي أن يحتاط، ويحافظ على نفس توازنه، مهما مرّت من دوريات حوله . وعلم

القاصد لطفي سيناريو لم يكن غائباً عنه . وهو أنه بحاجة لسجاد يورّدها إلى الخارج، ويذهب القاصد للإخبار بأمر الباخرة، وانتهى الأمر إلى هنا بسلام.

أما هموم الليل فتكون قاسية دوماً، فما أن يضع لطفي رأسه على الوسادة، ويقفل باب المقصورة، بانتهاء كل التعليمات للرّبان، تطارده الهواجس مفكراً في البعد المعنوي الكبير بينه، وبين بناته، وهو أقرب ما يكون عنهم، يقف بين المعابر . ويفكرّ بمجازفة قد يقوم بها لو حاول رشوة من يتسامح بتمريره من وراء الأسلاك، ويذهب بباص شعبي ليرى ما هي أمور بناته تحت سيطرة زوجته وجدان .

ويغفو لطفي وهو على حاله فيرى حليم وجهينة ما يزالان في حالة الدرس، غير مهتمَين بمياه الأمطار التي زحفت على الفصل، والكراسي بطلابها بدأت تطفوا معهم من فعل تزايد المياه في الفصل . ولا أحد يجرؤ على ترك الحصة لقسوة الدكتور علي حيدر الملقب بقمبزة أستاذ العقوبات الدولية .

فيعجب لطفي من تغير الحال، وكأن حليم، وجُهينة قد عادا طلاباً في سنوات الدراسة الجامعية يدرسان معاً قوانين لو طبقاها الآن لن تجدي في ضوء التغيرات الدولية . لكن لطيف الآخر في نفس لطفي يشعره بأن عليه أن يعبر الشارع، هذا الشارع الذي تركه على حاله منذ استيقاظه، وحتى الآن . ويحثّه على الإسراع، ففي الحلم لا يمكن لأي شيء أن يستمر على حاله لفترة طويلة كهذه، ولطفي محظوظ ليس إلا . فلا يبالي لطفي هذه المرّة من الخوض بحذائه في مياه بدت كأوراق الخريف، وقد فضّل السير تحت ظلال الأشجار، وخلفياتها لكي لا يميزه من جلبهم المُخبر من رؤوس، وعيون، وأسلحة .

وما أن يصل لطفي إلى نهاية الشارع حتى يبدو له المكان غير طبيعي، فلا هواء، ولا أصوات حياة، فيتعرّف على المكان الذي يسير فيه على كونه سجن كبير محاط بسياج من كل الأطراف وإنه وقع في مصيدة الثاني فيه، ثانيه الذي تنكر له، وانضم مع رعيل وجدان ليتلقى أوامر السلطة دونما

رحمة .. وعليه هو لطفي أن يجلس مع الآخرين في طابور الجالسين بانتظار الحاكم العسكري ليتلو عليهم قرارته، ومع هذا عليه انتظار العبور، ولا يعرف إلى أين سوف يعبرون به مع غيره .. ورغم هذا ففي لطفي رغبة بالعبور وهو يقود سيارته التي تركها بالدار غير بعيدة عن هنا، ويأتي معين بالغذاء فيرمي أمامه صحن الأكل .. ولطفي بين حالتين . حالة السجين مع المساجين، وحالة الفار الهارب، وحالة ثالثة بدأت تتوضّح الآن فقط، وهي حالة الشعور بالتملص وعدم الولوج في هذه الورطة وعليه الخروج مهما كلفه الأمر، وما عليه غير معرفة كيفية عبور الشارع إلى حيث سيارته . ويخاطبه الآخر بحرص ومراوغة بقوله :

لطيف : يكون ذلك من خلال فجوة كبيرة قريبة ..

ولم يقدر لطفي على تحاشي ما سمعه من الآخر . لكن الوصول لتلك الفجوة أبعد منه إلى الشمس، فمن يضمن في هذه الثواني عبور سالم آمن .

وبينما يحاول لطفي حشر نفسه بالفجوة، يشعر بضيق التنفس، ويسمع من ينادي بالخارج، فينهض من فراش أحلامه، ويفتح باب المقصورة، وكل أمله في أن زورق القاصد قد عاد . لكنه وجد مهربّين يقايضون الرّبان على صفقة، فلما أحسوا بوجوده سارا، وقد برر الرّبان تعامله مع هؤلاء، بأنهم طلبوا منه شحنة سجاير أجنبية . وفي هذه الأثناء وصل القاصد، وكان هذا قد شاهد هؤلاء يرحلان، فسأل عنهما لعله شكك في أمرهم، فأوضح الرّبان بأن هؤلاء أرادوا سجاير يدخنوها الآن . وأخبر القاصد لطفي بأن باخرته هذه من الحالات النادرة التي لا تحدث كثيراً، فما يزال المسؤولين غير مصدّقين ادعاءاته، رغم سماعهم نداءه، فمن النادر أن تأتينا باخرة إلا كل ستة أشهر، ولكني سوف أجازف وأمنحك ترخيصاً على مسؤوليتي .

وهكذا حصل لطفي على الإذن تحت عِلم، ونظر نقطة التفتيش، بعد أن منح القاصد حفنة دولارات تحاشى هذا أن يراه أحد، وهو يخفيها في حزام تحت صدريته . تلك المغامرة كانت من أكبر المجازفات في حياته ولكن

ليس أخطرها . ولم يفوّت لطفي وقتاً كثيرا، وبذل الرّبان أقصى جهده للوصول، ربما لأنه يريد هو الآخر تنفيذ عقد صفقة السجاير .

وفي المفتية بعد أن اشترى لطفي القطوعات، "هكذا يسمي السماسرة أذونات التزويد" ووقف في الدور، اتفق مع التاجر الذي اشترى منه القطوعات أن يتولى أمور التسويق للحاجيات الاستهلاكية اليومية، من مواد غذائية .

وقد جرّب لطفي النزول إلى ساحل المفتية، والتسلل لربوع البصرة الجميلة، يهاتف أهله ويسهر مع أصدقائه، حتى كان يوم اختصم مع الممول، فلم يجرؤ بعدها العبور خوفًا من الوشاية .

وفي تلك الليلة خاف أشد الخوف مما قد يجري له، لو أن الممول قد أخبر عنه السلطات، على أنه يتاجر من غير دفع الأتاوات ... واحترقت وسادته بحرارة الأرق، وعرق كثيرا حتى نام فوجد نفسه فجأة مع طارق أحمد وهو يقوده في السوق .. وينبته لطفي للشبه الكبير الذي يراه في الحلم بين طارق، وفرج الله . ويقوم "فطارج"، هذا الواحد في اثنين بقيادته لدخول سوق قد يكون في الموصل . أو بغداد . ولكنهما أي كلا السوقين مزدوجين معا . وفطارج المزدوج من شبيهين اثنين، هو الذي يروي الآن له سهولة تبرئة الذمة كما فعل الكثيرين غيره، ولم ينس لطفي قوة تداعي صورة محمد مازور الذي يدعوه هو الآخر لكي يكون آمنا، فيما لو ذهب معه لجهاز البوليس السري لتقديم البراءة، وهي لا تستغرق أكثر من ربع ساعة، وتتم بكل بساطة.. ليس أكثر من سطرين ... وكم تأسف وقتها على خيبة أمله في أن يصير الناس بهذه العقلية ، ويتبرعون بخدمة بوليسية دون دفع ثمن مقابل.

وكم كان يعطف على ذلك الانكسار الذي يصيب من يخرج من مكتب البوليس السري وقد طوى نسخة من ورقة البراءة في جيبه الباطني في قلبه، وعقله، ومخيلته، وذاكرته، وأحلامه، يحاول في كل حلم محوها، وكشط الكلمات . وكم سمع عن كثيرين ماتوا هما وراء البراءة، وكم انتحروا أمام

بيوت البوليس السري .. وحتى اليوم وبعد أن قابل الحجي عزّة الذي كان قد أشهر البراءة العلنية، ورغم أنه يدعي الآن بطولة إنقاذه لآلاف الرؤوس التي كانت ستسقط من غير ذنب، لولا أن فداهم هو بنفسه من غير الموت هذه المرّة، وإنما بالتخلي عن كل شيء، فقد وجد لطفي داخل عيني عزّة ذلك الهاجس الذي لا يفارق كل المتبرئين وقد تضخمت هنا بالذات لدى الرفيق عزّة، يحاول أن يدافع بها عن نفسه بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود من الزمن بقوله المتكرر :

عزة : لم أتبرأ من فكري، ومن وطني، ولكنني تبرأت من ممارسة العمل السياسي .

ويتابع فطارج محاولات الإغواء دون إصغاء في سرد كيفية ذهابه هو وأبناء الدورة كلهم للتوقيع على وثيقة البراءة الإلزامية الجماعية، ولم تحتاج الوثيقة حتى للقراءة، ما دام الكل قد وقعوها قبله، وبعده وهي بكل بساطة تبعد الشرّ، والأذى عن صاحبها، فأثبتوا للمسوؤلين إخلاصهم للقائد المبجّل . وبذلك لم يقوموا سوى إحقاق ما كُتب، وتثبيته لا غير وأقروا بالذنب، والجرم السابق، وعفا الله عما سلف . وهكذا لم يكن هناك ضرب، ولم يكن الأمر صعباً بل أكثر سهولة من شرب الماء .

ويفطن لطفي لوضعه وهو محاصر الآن بين جدران وهمية، وهي محاولات الإقناع التي يقوم بها فطارج للحضور هناك وراء الجدران والأقفاص والأبواب والقضبان.

وتذكر لطفي أيام خدمته الإلزامية في حراسة سرية الأقفاص التي خصصها الحكام كبيوت وهي ليست أكثر من معسكرات سجون للمرحلين من خطوط الحدود الشرقية تمهيداً لترحيلهم إلى الجنوب لكي يسلخوا الشعب الواحد عن بعضه، كان وقتها متحمّس للفكرة، ولا يتعاطف مع من اعتبرهم أنداداً لأهله، ربما بتأثير غسيل المخّ الذي مورس عليه من خلال وجدان التي كان يحبها، عكست ببغائية، وحماس آراء ذويها . وفيما بعد مما كان عديله وأخو وجدان اللذين يرددان أمامه تفاصيل العداء العنصري القديم .

ولكن لطفي اكتشف الحقيقة حالما مارس الحراسة على الأقفــاص، ورأى بعينه كيف يمكن أن يُذل الإنســان عندمـا يحـرم مـن أبسـط حقوقـه، كاختيـار المكان والمجتمع اللذين يعيشهما .

وعاد لطفي من جديد ليتذكر القلم والمحبرة لتسوية قضيـة الـبراءة فـي التحقيقات السرّية .. والقلم الذي لا يريد التحرّك أبـدًا. مـن كلمـة إلـى أخـرى دون معانـاة شـديدة خصوصـاً إذا مـا جـف الريـق، وبحّ الصـوت، وخــافت الأصابع من سبر أغوار القلم فالكلمة التي تلـي الأولـى أصعـب مـن سـابقتها وماذا لو أخطأ وجلب جملة ليست فـي السـياق ؟ ألـن يحاسـب علـى الكشـط، والمسح معاً ؟ ويبدأ تحقيـق مـن نـوع آخـر ؟ ومـاذا عـن الكلمـات الثالثـة، والرابعة، والألف... والأسطر الثـاني والثـالث، والرابـع والألـف ؟ لابـد أن تشكلّ كلها قصة .. تدين، ولا تدين، وتعترف، ولا تعترف . تتبرأ، ولا تتبرأ. تجـرّم، ولا تجـرّم ولكنـها بالتـالي وثيقـة لا بـد أن تحــرر بأسـلوبه. إضافـة لتوقيعه، رغم أن الدباجة العامة هي واحدة في كل الأحوال له ولرفاقه . فمـا هذا الهّم الكبير الذي يحاصره والمشوار الصعب الذي سيسلكه بين الترويسة والختام..؟؟؟

ويطرق طبّاخ السفينة باب المقصورة على لطفي ليخبره بأنه لم يبـق فـي الباخرة تمويـن غذائـي .. والبحـارة ثـائرون يطلبـون الغـذاء، ككـل المدعيـن بوجود نقص غذائي لديهم .. رجفة .. حُمّة .. تقشّر شفاه . فقام لطفـي ليلبـس جلبابه العربي، ويخرج إلى سوق الميناء، فيعقد اتفاقاً مع ممـول آخـر، جلـب لـهم عربتـان نصـف نقـل مملوعتـان بالخضـار، والفاكهــة ومنــها المــوز .. وبقرتان مذبوحتان، وإحدى العربات مملوءة بالرقّي*، والبطيخ*.

وعندما يطمئن لطفي على الباخرة يقرر أن يذهب إلى الداخل، لعله يجـد من يوصله إلى بيته في العاصمة، ويتوسط بأحدهم أن يعبرّه ..

فلا يجد لطفي نفسه، إلا وهو يستقل سيارة أجرة من البصرة إلــى بغـداد، وتفاجأ وجدان زوجته بوجوده . ولكنها لا تستقبله كما هو معتــاد، فتقـف بيـن ضلفتي الباب، وموارية، وقد ارتدت المنامة . ويستغرب لطفي من سلوكها،

وتسارع هي لتبرير ذلك بأن لديها اجتماعاً سرياً، والبنات عند أمه . فما عليه إلا أن يذهب حالاً، وسوف تلحق به مباشرة .

وما أن يصل لطفي إلى بيت أهله حتى يجد سيارة الشرطة بانتظاره، فيسحب عنوة، وقد قام مرشد المنطقة بالتعريّف به في الحال . وفي غفلة منه يرى لطفي أمه من الداخل تلوب لتمنع الصغيرات من رؤية أبيهن وهو يُهان، ويسحب كالخراف .

وبسرعة لا تصدّق يعرف لطفي من السجناء أن أهل زوجته قد استصدروا أمرًا بتطليق وجدان منه، وسرعان ما زوجوها، وجعلوها تتخلى عن بناتها . بدعوى أنهن لن يختلفن عن أبيهن إلا إذا أثبتن العكس عندما يكبزن . وربما كان هذا تسويغاً لضابط المنطقة الذي زوجوه إياها، ليرتع بالفاكهة البائتة، دون إزعاج وتنغيص فهو صديق أخوها ومسؤول المنطقة .

وتعود الذاكرة بلطفي لكيفية موافقته على ترك اختصاصه، ومكتبه الهندسي والعمل في التجارة بناء على إلحاح وجدان اليومي، ومباركة كل من أخيها، وعديله، فهما اللذين مهدا له السبيل . بل إنهما استصدرا أمر الخروج، وشهادات المتاجرة الخارجية . ربما فعلوا كل ذلك من أجل أن يخلو الجو لمسؤول المنطقة لكي ينفرد بوجدان، ويتزوجها . فقد كان لطفي الخائب عائقاً، سمجاً كما يبدو أمام تنفيذ كل ما يتطلب من وجدان من عطايا هيئة المنطقة . هذا ما صورته هي لرفاقها، وأكده مسؤول المنطقة بنفسه للجهات الأعلى .

وعلى الباخرة إخلاص، تصل الأنباء عن طول تأخّر لطفي، فيفتعل الرّبان حكاية هروب لطفي، بأموال ورواتب البحارة، ومبالغ الصفقة التي كانت قد عبأت أخيراً، لكي يقنع من لديه شكّ . ويستولي الرّبان على الباخرة، وكل أمله في أن يقبض الموارد من الممولين، خصوصًا، وإنه قائد الباخرة، ولسوف يصدّق الممولون ما سيدعيه الرّبان على لسان لطفي، بعد إبراز الوصولات والتحجج بأن لطفي قد لازم الفراش، بوعكة صحية طارئة، وسيعود الرّبان بالشحنة التالية .

ويتأمّل الرّبان وهو يقود الباخرة إخلاص بشحنة السجاير التي سوف يوردها في عودته بالنقود التي سيستلمها، من شحنة الذهب الأسود . وبعد بيع شحنة السجاير سوف يملأ الباخرة بشحنة ذهب أسود جديدة، وسوف يدّخر النقود لكي يشتري الباخرة نفسها . أجل فمن أحقّ منه بها، لقد صرف دمه، وعرقه، ودمعه عليها، ومعها، ولم يعطها اسمها إخلاص غيره .

وتاه الرّبان في أحلام، وتداعيات كثيرة، ومن سرعته لم يستطع تمييز الدورية التي اجتازها، رغم التنبيهات المتكررة، مما أثار حالة استغراب، وشكوك، فتصدر الأوامر السريعة لملاحقة إخلاص، ولم يراع الرّبان الفطنة التي كان لطفي يتقنها، بل زاد من سرعته خوفا من أسئلة لا يحسن فبركتها، فانحرف بالباخرة بسرعة عن خط السير، واصطدمت الباخرة إخلاص بلغم فجرها بكل ما فيها، وتصاعدت النيران منها لمدة ثلاثة أيام .

وعلى الساحل نجى بعض البحّارة من المحظوظين، ومنهم الطبّاخ الذي روى لنا هذه الحكاية، من أولها . أما لطفي فلم يعرف عن حاله شيئا حتى الآن . كل ما نوّده أن تنجو الصغيرات من جور الأيام.. وويلاتها ..

الهوامش :

*** الطوس = جمع طاسة = وعاء لملء الماء .**

*** الرّقي = البطيخ الأحمر .**

*** البطيخ = الشمام .**

الرأس المثّلثة

عندما فاجأ قيس زميل طفولته بدر في مطعم صحارى الكائن في الميل الحادي عشر المتقاطع مع شارع غرينفيلد، بمدينة ديترويت - متشيغان، لم يتذكر بدر لحظتها من أيام طفولته في العاشرة غير طيف باهت، فوقف أمام قيس كصنم حثي نسيه الآثاريون، ولم يدرسوا حالته، وتأريخ كيانه . وفجأة برقت شرارة الذكاء في عيني بدر، وكأنها مفاتيح ملفات آلة حديثة من آلات عصر الشبكات "NETS" بمختلف معاييرها وتشعباتها يستخدمها بدر الآن بمعايير خبرته التي قضى حياته فيها لقياس البشر من منطلقاته الخاصة جداً، ولم يكن قيس يعي حتى اللحظة ما يخبئ له بدر وراء تلك العينين الساحرة البريق، ولأن قيس كان معبأ بتصور هام عن طفولة بدر لم يكن لينتبه لما سُحب إليه في نهاية المطاف .

وما هي إلا لحظات حتى لمعت عيني بدر بتباشير الاسترجاع لتخبر قيس دون كلام، بما تشكّل في ذاكرة بدر من صور لقيس وهو يمشي أمامه في طريق عودهما من مدرسة بلدتهما الابتدائية الرسمية للبنين، وقد انتقل إليها قيس معنا من المدرسة الأهلية المختلطة . فيبدو قيس وهو يتحاشى الحجارة والحصى التي يتعثر بها أمامه، والحجارة التي يرميها بدر على كل من حوله دون هدف، فيصيب قيس في اليوم على الأقل بواحدة . أو اثنتين، هذا إذا لم يهجم كالمسعور، ومن دون سبب ليرفس . أو يعض أحدًا ممن حوله حتى لو كان أحد أخويه العاقلين .

وفي الفصل يكون قد اشترى بدر تلميذ مسعور هو سدهان الذي لا تنقصه روح الفكاهة، فيقوم هذا بتقليد كل تلميذ، إذا ما انتهت قائمة المعلمين، وعندما يأتي دور قيس يصطنع سدهان كل ما يملكه من التملق ليرضي بدر تحاشياً من عضّة قد تصيبه في الصباح الباكر، ولكي يرضي غروراً خاصاً لدى بدر لم يدر أحد ما سببه ودوافعه، وهو بما يبرزه سدهان من قصور في

قيس . ولم يسمع قيس قبلها . أو من يومها النقائص التي لا حظها فيه سدهان، ربما لأن سدهان كان يشغل المقعد الخلفي لمقعد قيس مباشرة، وتصادف أن حلق الحلاق رأس قيس أكثر من اللازم في أسبوع ربيعي كأنه يجز نعجة أمامه فبرزت قرعته أكثر من المعتاد، فتمادى سدهان بوصف قيس بمثلث الرأس، ومن يومها صار هذا اللقب كنيته أينما ذهب .

وكم حزن قيس وهرب من الفصل إلى البيت مباشرة، ليقيس مقدار الاستدارة في رأسه . وتتساءل أمه عن سبب عودته المبكرة باكيا، فتراه وتعزيه، وتنفي ما لديه من عيوب خلقية في جسده، منطلقة من مأثرة أن القرد بعين أمه غزال، لكنه لم يقتنع حتى الساعة . ويزيد في الهم أنه كلما تفحص نفسه في الحمام يرى عيوبا أخرى لعلها تتجاوز الرأس إلى غيره من الأعضاء، بكل بشاعة التكوين البشري الخرافي، ولكن الرأس هو الأهم لأن له علاقة مباشرة بالمظهر الخارجي مقارنة بزملائه ومنهم على وجه الخصوص بدر متناسق الصفات طولا، ورشاقة، وحسن قسمات . لكن ما كان يعزي قيس أن الصغيرات كن يتحاشين الاقتراب من بدر مهما حاول جهده، بينما يجاهدن في التقرب من قيس لسر لم يدرك معناه حتى الآن .

ويوما بعد يوم يكتشف قيس عيوبا في تكوينه، وصل عدم التناسق إلى أذنيه فقد احتاج وجهه لتوازن أفقي يتعلق بالأذنين، وهذا ما اكتشفه يوم احتاج لتركيب النظارات الطبية عند دخوله الجامعة، فقد حار العويناتي وقتها في اعوجاج إطاري النظارات التي يقيسها قيس، وارتفاع أحدهما عن الأخرى، وأخيرا عوج النظارات دون توان، وكأنه عرف السبب ولم يذكره له . لكن قيس عندما وضع النظارات على الطاولة ووجدها معوجة قام بالمقارنة العويصة، والتماهي في الذات، لكي يبعد شبح التشويه الخلقي الجديد، ولكن من دون جدوى هذه المرة أيضا.

تلك الصور التي سحبها الزمن مع قيس، وبقيت أمامه، عانى منها حتى عند التحاقه في الخدمة الإلزامية، إذ أنه كان يكلف بمهام يتصورها ضباط الصف ليست لائقة إلا له هو قيس، بينما تعافها نفسه الرقيقة . وهاهو يرى

بدر الآن أمامه يعاني، أو ربما يتصنّع المعاناة في إعادة تشكيل صور الطفولة لشبح صبي خائف أمامه، كان محط تفننه في تعلّم خبث الاعتداء على الآخرين . ونطق لسانه بدر أخيراً بتردد وبنوع من التشكك وإظهار نوع من عدم الاكتراث والتأكد مخفياً شبه ابتسامة ساخرة، ربما تعود لتذكره لقب قيس مثلث الرأس :

ـ آآآآه الآن بدأت أتذكر .

ولم يضف على ذلك شيئا هاما، ربما عمد لذلك عن قصد لم يتبينه قيس حينها، فمن ينسى وجه قيس الغريب حتى ولو بعد نصف قرن بتلك القسمات غير المتناسقة ؟ وأضاف صاموئيل قائلا لبدر : قيس وصل حديثا من معسكر اللاجئين ؟

وينتبه بدر من جديد إلى البؤس الذي يحمله قيس في وجهه، وربما يكون بفعل كثرة الندوب في وجهه، لعلها من نقص التغذية . ولأن بدر استرجع ذاكرته أخيرا، أدرك بما لا يقبل الشك، أي سيناريو مخيف سوف يرسمه لقيس فأر التجارب الجديد ـ القديم الذي جاء طواعية ليقع من جديد في مصيدته . وسرح بدر من جديد، وقيس يتلمس عن بعد مسامات التنافذ لذاكرته وكأنه ذلك الحبيب الذي يحاول تلمس يد حبيبته، لتسري بينهما شحنات التعاطف، ولكن في حالة كهذه ليس من منفذ غير التواصل بالتخاطر عن قرب . ويفكر قيس هو الآخر بنفسه، إنه لم يكن بعد هذا العمر الطويل ليتعرف على بدر بهذه السهولة لولا إشارة صموئيل إليه . كان قيس وقتها يريد أن يدخل على بدر في مكان عمله، ويتفرس في ملامحه متأكدا أنه هو بدر ومن ثم يتلاعب بمشاعره، ويبدأ بتذكيره . لكن صاموئيل أفقد الدهشة كل معانيها، لعله يقوم بدور سدهان هو الآخر .. سدهان من نوع آخر.. أكثر تقدما في السن، والعمل .. ولكن ربما باتكالية المستفيد من مواهب بدر الجديدة المتطورة ... ومن يدري ؟ إذ كان صموئيل قد قام بإخبار بدر قبل أيام بأن صديق طفولة يريد رؤيته، ربما كانت كلمة صديق هي الالتباس الوحيد الذي حير بدر، فليس له صديق من أيام الطفولة، والأصدقاء كانوا

يهابونه مثل سدهان، ونعمان فيما بعد في مرحلة الشباب . وحدث اللقاء مصادفة، فقد كان صمونيل جالساً وبدر على طاولة المطعم قرب صورة الملك جورج وهو يقتل التنين، فاستبق الحدث عندما مرّ قيس في المجاز البعيد وهو يتأمل الصورة، مستغربًا من وجود صورة كهذه في مكان للأكل والشراب، بالتأكيد صورة كهذه ليست مشجعة للشهية .

فلربما يكون لها بعد آخر، وهي الحلم بقتل تنين العصر، أو أن اسم صاحب المطعم هو جورج، أو كوركيس . وانتزع قيس ضحكة ساخرة من فؤاده المكلوم متحسساً آثار الجروح في وجهه، وكتفه. وهو يفكرّ في صعوبة مهمة القديس المعاصر في قتل التنين الذي تعددت رؤوسه، وتغيرت أساليبه. ويلتقط صمونيل قيس هاتفاً باسمه، مما أفسح المجال لبدر أن يتأمل الغريب عن بعد . ربما كانا قد اتفقا مسبقاً على اصطناع موقف ما، ولكنهما لم يخططا لهذا الموقف بالتأكيد، لعدم علمهما بأن قيس سوف يكون في المطعم نفسه، وفي هذا اليوم بالذات لهذا ، استبعد قيس هذا الهاجس، واستعجل الوصول إلى الطاولة، مفكراًبمن يقف بقرب صمونيل . وهاهو بدر أقصر بكثير مما تصوره قيس، بل إن قيس يفوقه طولاً . ممتلىء أضلع وأريحي كامل الفحولة والحيوية، ولكن لم يبق من فتنته الجذّابة إلا ذلك الألق الدفين تحت تجاعيد السنين . في حين كان بدر في تصور قيس حتى الآن، بأنه ذلك العملاق الطويل والضخم، لا يبالي بسراويله النصفي، الذي تفتقت خواصره من شدة حركته . لعل كلاهما الآن أحوج لثوان يستردان فيها أنفاسهما من هذه المصادفة التي حاول قيس رسمها بجهد سنين، ربما يفيد أن يتدخل متطفل لكي يفسح المجال لكليهما كي يتفحصا عن قرب، من خلال مهاب كلاهما للآخر، ولو من الظهر صور الطفولة البعيدة . وفعلاً تشاء المصادفة أن يلهي بدر عن قيس في هذه الفسحة التي تمتد ربما لأكثر من نصف قرن، مستطرق أراد في هذا الزحام من الناس، وقرقعة الصحون أن يستعرض أمام غريب علاقته، وجاهته، وأعماله، أفاد كل ذلك قيس كثيراً فعرف من الحديث الدائر، الذي سرقته أذناه في غفلة عنهما، ومنهما أن لبدر ابناً غير

شرعي اعترف به أخيرا، رغم أن أمه أسمته محاقا نكاية ببدر، وهو يعيش معه بعد أن تنكرت الدنيا له في كل آمالها . وتساءل قيس في سره : هل يعيش بدر عازبا ؟ ذلك لا يبدو من تصرفاته، ويقول قيس في نفسه :

- يا ابن أمي وأبي اللذين كانا على موعد زفاف لم يتم .

ولا يعرف قيس ما الذي جلب لذهنه هذه القصة التي كانت تتردد على لسان الجدات في بلدتهم، ليتذكر صراع والد بدر في تنافسه مع خطاب أم قيس الجميلة . وكان وقتها مدير بلدية غريبا لم يشأ أن يزكيه أحد من ملة أهل قيس . لهذا فاز والد قيس بالعروس، ولو كان قد حصل ذلك الزفاف لكان قيس قد نال على الأقل نصيبا قليلا من البدعة الجمالية التي كانت لبدر وإخوانه، لا صفة أحد أعمامه الذي لم يره، ولشدة الشبه في التشوه دعي قيسا باسمه .

ويعود بدر لصحبة قيس، ويأسفان على ضيق الوقت الذي يحاصر كلاهما، وقيس بالذات بحاجة لوقت أوسع لكي يتعرف على الصبي الشقي الذي كان يتعارك حتى مع حجارة الطريق، ويضايق أساتذته، وحتى دواب الطريق لم تسلم منه . وبداخل قيس سؤال حيره طوال تلك السنين لماذا كان بدر لا يطيقه، خلافا لأخويه الاثنين اللذين كانا بطبع آخر، وكان قيس يود البحث عن سيرة أخوي بدر لديه، لكنه كان قد عرف مسبقا أنهما في مقام اجتماعي وعلمي ممتاز أحدهما محام، وسياسي مشهور . والآخر مهندس معماري معروف عدا عن الأخ الأكبر الذي لم يكن أحدا يراه حتى أيام الطفولة، لأنه كان قد التحق بمعهد ديني، وهو الآن رجل دين في بلومفيليد - ميتشيغان .

وبعد أن أكمل كلاهما غذاءه في طاولتين منفصلتين، جاء بدر ليطلب من قيس أن يوصله إلى مكان سكنه في موتيل ساغمور في شارع وودورد المتقاطع مع الميل الثالث عشر، فاعتذر قيس من مضيفه، وتبع بدر كالمسحور . وفي السيارة يتذكران بعض التفاصيل، فلم يكن بدر الصغير قليل الحيلة، يجدل حزام معطف فرات بعروة سترة كنعان ويجدل ضفيرة

فيحاء، وكأنها من فعل نازدار ... وهكذا شعر قيس الآن أنه أمام رجل آخر أكثر هدوءا .

وكم كان قيس يخشى من مقابلة بدر الجافة، لكنه أحس بأن بدر ودود، بل ومنكسر . فعطف عليه . بل وتمنى أن يحتضنه، ويقبل ذكرياته في جبين بدر . وسرعان ما تذكرا أسماء كثيرة مرت بخاطرهما كأنهما يتقاذفان حجارة الأمس . وسأله بدر عما جاء به، وكيف وصل . فوصف له قيس بإيجاز على قدر مسافة الطريق ما عاناه من ويلات بعد تخرجه مهندسا مدنيا، فخدم كجندي مكلف أيام الحرب الطويلة، ووعده بأن يقص عليه حكاية هروبه من الجبهة إلى الطرف الآخر، من غير أن يوقع نفسه أسيرا، وكيفية عبوره الجبال ليلا وهو جريح في كتفه، ووجهه فعطفت عليه عائلة من الفلاحين، وألبسته ملابسهم حتى حواه معسكر للاجئين بدلا عن معسكر للأسرى، ومن يدري لو كان أسيرا ما المصير الذي لاقاه، هل كان سينجح بالوصول إلى لجنة حقوق الإنسان؟

وانعطف قيس فجأة ليذكر بدر من جديد بأيام الطفولة، فحديث الأمس القريب رغم مأساويته يمكن أن تترجمه الأيام القادمة بينهما، وسوف يتكلمان كثيرا . وشبه بدر لقائهما بقصة لقائه مع شهباء، التي صار بدر يتذكرها، ويسأل عنها، بموارية خاصة، فشرح له قيس اختلاف لقائهما هذا بلقاء صديقة الطفولة وقتها، عندما نسي كلاهما ما حوله من ناس، ومناسبة هامة كان كلاهما قد دعي إليها على انفراد فعادا إلى طفولتهما الرشيقة يتسابقان في باحة المدرسة الأهلية المختلطة، وقد فزعت شهباء من قيس عندما كان يسعى ورائها لجر ضفيرتها، بعد أن خيبت أمله في عدم تنفيذها خطة تآمرهما على محروسة ذات الضفيرة الواحدة أبدا حيث يقومان بشحنها بمشادة جانبية مع شيماء .

وخطر ببال قيس لحظة سرده لحادثة اللقاء جواب لم يستبعده الآن، ولكنه لم يأت بباله وقتها . أجل لربما كان بدر يغار منه لأن له صديقات كثيرات، وهو : الموصوف بمفتون الصغيرات، وتذكر كيف رماه بدر بحصى من

"صبان*" أصابته في رأسه عندما كان يدرس مع الخضراء فوق سطح دارهم الناصع البياض، ولما اشتكى أهلها لوالده ادعى بأن أوراس هو الذي فعلها .

وفطن قيس إلى سؤال آخر، وهو هل كانت الصغيرات اللواتي يلعبن معه، يقمن بذلك بحب الصداقة، أم بدافع الشفقة، ولكنه لم يتعمق في تفكيره القسري الذي اقتحمه، فالتفت إلى بدر مبينا الحاجة لوقت أطول لاسترجاع أيام الطفولة . واتفقا أن لقاءهما الآن وقفت أمامه حواجز، ربما بسبب الوسطاء الذين هم على درجة بعيدة عن تأريخهما الذي عاشه كلاهما، إضافة لضوضاء المطعم، وكثرة حركة الندال . وأنهما على الأقل يقفان الآن في مساحة زمنية لم تتجاوز الساعة . وقد ترجم الواقع ذلك، إذ سرعان ما وصلا إلى ساحة سيارات الموتيل، في الوقت الذي كان قيس يهم بسؤال بدر عما فعله طوال هذه الفترة، فلم يأت على طرف لسانه إلا سؤاله عن اختصاصه، ولم يحصل من بدر وقتها غير أنه لم يكمل تحصيله الجامعي، ووعده بلقاء خاص يفضي إليه بكل ما لديه . وقد كان كل أمل قيس أن يلتقي بدر على انفراد، وبقرب أكثر، وحميمية من نوع خاص .

وقد تحقق لقيس ذلك بعد يوم فقط، فالتقيا بناء على موعد كان قد رتبه بدر لكي يفضي لقيس بكل ذكرياته . وربما كان بدر قد شرب كأسين من ويسكي الجي آند بي "J&B" قبل اللقاء، فوجده قيس معبأ قبل انتهاء الكأس الأولى . ففاجأه بدر بحديثه مباشرة كأنما يريد أن الاعتراف لقسيس كاثوليكي، وهو يفتخر ببطولاته، حتى أنه لم يجب عن سؤال قيس عن أخوته الثلاثة، وباختصار شديد "عفط" لهم ثلاثا مع ذكر اسم كل منهم . ولو أن قيس لم يسمع عن بعض سيرته الذاتية لهذه الأعوام من أحد أصدقائه لهان الأمر .. ولكن ما قاله بدر لقيس أعاد الكثير من تقييمه لبدر . رغم عدم الجزم كاملا . قال بدر :

- بعد أن تركنا البلدة التي عشنا طفولتنا فيها، أكملت الثانوية في مدينة الثغر مسقط رأس أبي، وكان علي أن ألتحق بالجامعة في العاصمة، وأقيم

في بيت جدي الكبير، وليس له وريث في الوطن غير والدي، فأقمت فيه كالملوك، ولكنني لم أكن لأرغب في إكمال دراستي ولم يتح لي الخروج مع أهلي إلى السويق، وترك بيت جدي الكبير لي وحدي، لأن والدي كان قد حصل على عقد عمل مغر هناك، لهذا اضطررت إلى الانخراط في الخدمة العسكرية كجندي مكلف من غير أن أكلف والدي عناء دفع البدل النقدي . أو ربما لم يكن يسمح حتى لمن يدفع البدل النقدي أن يغادر دون إكمال الخدمة الإلزامية ... وقد التحقت للتو بدورة تدريب المستجدين .

ولم يكن الأمر هينا علي أن أساق للعسكرية، وأنا ابن النعمة، والجاه، والرفاه . فحاولت التلاعب مع العريف بشتى الوسائل : تمارض، إلى تأخر بحجج ليست مقنعة حتى تفاجأت في يوم من الأيام أن يكون أحد من كانوا يزورون بيتنا الكبير من الأصدقاء الليليين هو ضابط تدريب . ولما مررت أمامه بتثاقل نهرني كأنني أحد الأغراب، ويبدو أنه كان نوعا من التحذير لي لكي لا يلاحظ أحد أنني تعرفت عليه علنا . لكن بعد أن وصلت القاويش* عقب فترة الفطور التي تلي التدريب .. جاء مراسل يطلبني وقادني إلى مكتب الملازم . وما أن انصرف المراسل حتى هجمت على صاحبي بكلامي معه بأن يخلصني من هذا الذي أنا فيه بأية طريقة كانت فما لي والتدريب . والدوام، والمجيء مبكرا :

- لك بوول سويلي جارة* .

ووعدته خيرا لو أنجز لي هذا المعروف، ولم أحتج لطول وقت لتذكيره بلياليـنا، بل يبدو أنني حتى قبل التحاقي بالخدمة الإلزامية بفترة قصيرة كنت اجهل أنه عسكري، وهو المتردد على بيتي بصحبة رفيقاته . وما شأني أنا بكل من يتردد على بيتي ما دمت أقضي معهم وقتا مريحا، ولكل منا همه، وعمله ..

ولم تدم المحنة كثيرا فقد وجدت نفسي أكثر المدللين، ولم أكتف بذلك، وإنما طلبت أن يكون نعمان زميلي مدللا هو الآخر كشرط لاستمرار صداقتنا أنا والملازم، وسماحي له بدخول بيتي. وسرعان ما انتهت المدة

دون عناء بل إن الفترات التي كنا نقضيها في الإجازات تجاوزت ساعات الدوام كثيراً . ولكن قلقاً آخراً بدأ يؤرقني، وهو إلى أي وحدة عسكرية سوف يتم تنسيبي . وعدت لتذكير صديقي الضابط من جديد في أكثر الأماسي الحمراء القريبة من موعد سحب القرعة :

- يول داد مروتك وين ممكن يكون تنسيبي .؟اعمل جارة* .

- خلي تطلع القرعة، وإذا لم تقع حصتك في مكان جيد ، نرتبك بعونه ؟

ويربت على عض . و. . وه، بقصد التأكيد المزدوج المعاني .

- ألا تشرب يا قيس ؟

وصب بدر من قنينة ال"جي أند بي" في قدح قدّمه لقيس، من غير انقطاع عن السرّد والتدخين فهتف ضاحكاً : من حظي الكبير أنني فزت مع نعمان بالقرعة في مكان آمن، وجميل . مريح وهو مكتبة مقر وزارة الدفاع . مكان لا يحلم به أحد أبداً . ولكن من هُم هؤلاء الذين سأعمل معهم هناك ؟ وكيف سيتم التعامل معهم؟ وهل يكون الأمر سهلاً في استمالتهم ؟

ومرّ الأسبوع الأول ثقيلاً، كتابنا وكتابكم، وليس من مراجعات هناك ضابط سمين، لكنه لا يبدو من وسط متمتع بحبوحة، ربما يكون مُحدث نعمة، يدخل هذا الضابط غرفته، ولا يخرج منها إلا نهاية الدوام، ونائب ضابط مسلكي ليس عدائياً كغيره من صنفه، ولكن ما ينقصه، بل ما يعنيني من نقصه هو ما له علاقة بشرط توفر شيء ما عليه تعويضه .

وعلى العموم فهو من المدخنين فلماذا لا اصطاده بالدخان، وبسجاير الروثمان بالذات . عليّ به إذن ... وبكيت على الهاتف لوالدي في السوّيق لكي يرسل كمية من الروثمان مع من يأتي لأني لا أدبر شيئاً بلا مصروف، وهنا السوق السوداء رائجة لبضاعة كهذه، وراتب الجندية أربعة دنانير، ونصف ، فعلي أن أضاعفها . أو أعمل ليل نهار في نقل الطين، واغتمت والدتي، وبكت على مدللها، رغم أن لديها اثنين يدرسان في أمريكا، والثالث يقيم في المعهد الديني .

المهم ما أن وصل الدخان حتى بدأ غزل خيوط المؤامرة بهدوء وببطء ممل . أضع علبة الدخان على الطاولة،وأدخن بعد استئذان نائب الضابط بالتدخين، ثم أتعمّد التلذذ بها، وأنفث الدخان قريبًا منه، خصوصاً عندما لا يكون قد أوقد سيجارته . وأستغل الفرصة لكي أقدّم له بتردد سيجارة واحدة في اليوم، تزايدت حتى قمت أترك له بقايا العلبة وكأنني نسيتها، ومن ثم العلبة، فالكروص، وبالمقابل كنت أطلب إجازة ساعة بحجة تناول الفطور مع نعمان صديقي لا أتوانى عن حساب حصة نائب الضابط عند العودة من فضلات فطورنا .

ونعمان صديقي هو خير من يحسن خلق الحجج، والمبررات، والتسويغات لي، وأن يكون تابعي أينما ذهبت، يفسح لي المجال أمامي، وما أن أسير أنا حتى يتنحى نعمان إلى الخلف لكي أمرّ أمامه بكل وقار، وأبهة، ورسمية جادة، كل هذا يتم بمشاهد مبالغ فيها في كل مكان . في السوق، في المقهى، عند "الكبابجي" . لهذا لم تكفِ الساعة لكل هذه الطقوس فقمت بزيادة الوقود لنائب الضابط حتى أطالب بساعتين ثم نصف نهار.. ثم غياب كامل . ونائب الضابط يفعل كل شيء بصمت، ويقوم بإنجاز كافة أعمالنا أنا ونعمان ولا يتوانى عن المقايضة الصامتة، والمفهومة بالإشارات، حتى بقايا الكباب الذي نجلبه يأخذه، ويأكله بصمت، ربما خوفاً من الأجهزة اللاقطة التي أوهموه بأنها منتشرة في كل مكان، فقد نوّه مرّة ونحن خارجون إلى الشارع العام من بناية المكتبة بقوله :

- كن حذرًا يا أستاذ بدر، فلربما تجد يوماً لاقطة مزروعة في أوعيتك الدموية .

لهذا يغلب الصمت حتى على حركاته، وأصوات أعضائه الداخلية، وهو قابع في الكرسي الذي لا يفارقه، وقد هدلت السدارة * على أحد جانبي رأسه، فبدت الصلعة برّاقة على عكس لون السدارة الكاكي، وقد زينها وسام أحمر معتّق من كثرة العرق، لم يبق له أية قيمة معنوية طالما تعددت الحروب وطال أمدها من غير سبب معروف.

ويبدو أن الضابط كان قد لاحظ اختلاف نوعية الدخان الذي صار نائب الضابط يدخنه، فصار يفتح الباب مرة، ويخرج إلى حيث نجلس ونائب الضابط، في المرات النادرة التي نداوم فيها، لا ليأمرنا بشيء، وإنما لكي يجاذبنا أطراف الحديث، بكل ود وصداقة غير معهودة بين الآمر، والمجند . ويبدو أنه هو الآخر قد وقع في الفخ، فلربما ذاق طعم الروثمان من علبة ضابط الصف . وسمعت في أحد الأيام ضابط الصف يغمغم كأنما يكلم نفسه، وهو منكب على السجلات وأنا أناوله كروس الروثمان الأسبوعي بأن علي أن أداري الضابط، فوعدته في اليوم التالي، ولكنه آثر الضابط على نفسه، وأومأ إلي بأن أدخل بهذا الكروص على الضابط الآن .

واندفعت داخل غرفته التي أشاهدها لأول مرة . وقد سبقني عبق دخاني ليسود المكان كله، فوهبته الهدية الفخ دون كلام، وخرجت . وهكذا خسر ضابط الصف سجائره من يومها، رغم استمراره بنفس التزامه تجاهنا، وبالصمت المعهود، طالما كانت تلك رغبة الضابط، فعرفت أن الأمور تسير في الطريق الصحيح، وأنني مقبل على عرس جديد قد أنهي السنتين في البيت، ودعوت الضابط لبيتي، وسكر، وعربد، ونزع ملابسه كلها، وغنى والراقصة تدخن، وتنفخ في مؤخرته، وهو غائب في تصوراته، تدغدغه كل حركة، وهو يهز عجيزته كراقصة طروب، مرددا جملة واحدة لا غيرها هي :

- ما أحلى الحياة .

ويقوم بدر بتوزيع أوراق اللعب التي لم يعرف كلاهما أو على الأقل قيس كيف اتفق أن تداولاه، وهما في حمى تسلسل الحكايات التي يسردها بدر بتفاعل، ويسمعها قيس بتشوق كبير . وبدر يهدر بمحطات حكايته، وكأنها كتاب يقرأه بلا معاناة فقال مستدركا :

- آه أين وصلنا ؟

ويجيب دون إفساح المجال .. ما أحلى الحياة..أجل ما أحلاها لضابط مسكين وقع في مصيدة بدر، تصور يا قيس صرت لا أداوم إلا لأستلم

الراتب . أو لأطمئن على الضابط لو غاب في يوم عن دوامه الليلي . حتى كان اليوم الذي هاتفني نائب الضابط بأن أذهب للدوام لأمر هام، وانفجرت دماغي بالأسئلة يا عجبا ما الذي حدث . وقال صديقي الضابط متأسفا والحزن يملأ فؤاده :

- خسرناك يا بدر، لقد نقلت إلى الشمال . ببرقية عاجلة من المخابرات المركزية .

ولكن ما الذي حصل ؟ ظل هذا السؤال يراودني آلاف المرات حتى التحقت بالمعسكر على بعد أربعمائة، وخمسين كيلومترا شمالا . والمصيبة أن نعمان ظل في مكانه هذه المرة، وفقدت كل شيء . فباتت كل أموري خيالا، فماذا يمكنني هنا أن أفعل، وكيف سأتدبر أمري .. وما سر نقلي بهذه العجالة وكأنني رجل مهم، وغامض .. لا بد من سر ما، ووراءه ما يخيف . بل أن هناك أيدي عملت في السر من خلفي.. وراودتني كل الشكوك في شخوص من مختلف الوجوه التي مرت في الشقة . ولكنني استبعدت أن يكون هو نائب الضابط . بل إنه لم يكن ليخطر ببالي أبدا . ولم يطل تساؤلي، وحيرتي كثيرا إذ ما أن التحقت بالوحدة، بأيام قليلة، كنت قد عمدت منذ البداية لإيجاد بديل محلي لنعمان كان اسمه بالصدفة على نفس النغمة الصوتية وهو سعفان، حاولت جهدي أن أجد مبررا معقولا لمبيتي في المدينة لا في المعسكر، بادعاء أن خالي الذي يعيلني مريض في المدينة، وبحاجة لمن يداريه في الليل، فهو مقعد، ولا يقوى على معاودة بيت الأدب وعلي القيام بكل تلك الأمور . كل ذلك كنت أشيعه بين من هم معي في الفصيل، وأتماهل في تنفيذ العقاب رغم السياط، ودعس أقدام العريف حتى وجدت العريف نفسه يعطف علي ..

كان سعفان قد تبرع وكلم العريف عن محنة خالي الوهمي، ومن هنا كان سعفان هو الذي وجدني، وليس أنا الذي بحثت عنه. فعطف علي العريف ومال علي يواسيني، وحاول تمرير أموري بالسر، فسارت الأمور بهدوء مشوب بالحذر . لكن هذا الوضع لم يدم، ففي يوم الخميس ونحن نستعد

للإجازة الأسبوعية جاء عريفي خزعل راكضا ليصطحبني لملاقاة قائد الفرقة وكان يرتجف ويرغي، وقد اكفهر وجهه، وشاطت شحمتا أذنيه . لأنه ظن أن هناك من وشى به، وأنه سوف يقدم لمجلس تحقيقي وكان طوال الطريق من الثكنة حتى غرفة مساعد القائد يتقدمني ويضرب كفا بكف على ضياع مستقبل أولاده ويلعن اليوم الذي رآني فيه .

ولم تدم تقديمات الجندي المذنب الذي هو أنا غير دقائق طلب مساعد الآمر من العريف أن يعود إلى وحدته، مما أرعبه أكثر وبقيت أنا مع المساعد حتى ينهي الآمر مكالمته ليدخلني المساعد عليه . وبخطوات عسكرية ثابتة، وتحية مجلجلة وإيعازات أصدرها المساعد لي كي أتقدم إلى داخل غرفة القائد، وصلنا إلى اللحظة الحاسمة، وكل ما بذهني ضبابي، ولكن فضولي زاد، وتعلق كثيرا بتساؤل ملحاح هو :

ما الأمر ؟

لعله متعلق بأمور كثيرة تبدأ من نقلي وتنتهي باتفاقي مع العريف ولكن ما أن وقعت عيني على ملفي الشخصي، وقد كتبت حروف اسمي الأول طوليا هكذا "ب، د، ر" يوازيها أرقام تجندي "794 " مكتوبة بالحبر الأحمر مع اسم وحدتي التي نقلت منها، حالما رأيت القائد يمعن النظر فيه ببرود، وهو يدخن سجائر لم تعجبني نوعيتها، رغم أنها أجنبية وهي "لكسترايك - LUKYSTRIK" حتى داخلتني مشاعر مدغدغة من الفرح والاطمئنان، بأنني سأكون هنا أشد سعادة من أي مكان آخر مررت به، وما أن تفوه القائد بكلمته الأولى حتى أيقنت جازما بالسعادة القادمة .. فقال :

- أنت بهذه الخطورة إذن .. حدثنا يا بدر كم امرأة تدخل بيتك في اليوم...

وهنا ارتخت كل أطرافي، وخاطرني مزاج هزلي مزيل للخوف لأنتقل لطور الفكاهة .. فقلت مازحا، ولكن بتوجس يوحي بالتراجع في حالة الخطر .. هو نوع من تعمد الخطأ غير المقصود فقلت متلعثما :

- سيدي كلما يقوم الززز .ب.ر .. أقصد كلما يضغط زر الجرس.

وقهقه القائد، وتلتها قهقهات المساعد المقلّدة بزيف ظاهر ...

- يا ولد لا تكن شقياً، وأخبرنا عن مغامراتك، هل تعرف لماذا نقلت من العاصمة إلينا ؟

ولم يترك لجوابي مجالاً . بل قال :

- إنك تفسد الضبّاط في بيتك، أنت أخطر مَن يمكن أن تتسرب من خلال لياليه وسهراته معلوماتنا العسكرية، وسوف تتلقى دروساً هنا تلقنك معاني الضبط، والالتزام للخلق العسكرية ... خذه أيها المساعد نجم لتعلمه واجباته.

قالها القائد بصرامة مفتعلة وشت بلا جدية، وإخفاء مماطلة مقصودة، ومع هذا نفذ المساعد أمر خروجنا من غرفة القائد بالرسمية العسكرية المعتادة، والمنضبطة، وما أن احتوتنا غرفة المساعد حتى بادرني المقدّم نجم بالقول :

- هل ما يزال بيتك تحت تصرفك ..

وقبل أن أجيب دعاني للجلوس ... وهنا انتهى كل حرجي، فجلست ووضعت رجلاً على رجل، ومن ثم أخرجت علبة سجائر الروثمان . وقدمت له، فقام بكل أبهة بتناولها، كأنه بوذي يسجد لمعبوده، وسحب علبة الكبريت كمن يتناول محفظة نقوده ليسدد فاتورة حساب باهظة الثمن، وقام ليشعل لي قبله كأنني شخص مميز، أو أحد رؤسائه، كنت وقتها قد تعمدّت إخراج مقدحة الديبون فلمع ذهبها المطلي في وجهه، فانبهر لها مما جعلني أتركها على حافة منضدته عامداً، ولاحظت أن كلانا حاول تجاهل الحركة عن عمد، هذا الشعور وذلك الانبهار في عينيه زادا اطمئناني أكثر . وسرعان ما سعى المساعد وسعه لإجراءات نقلي لمقر الفرقة، لأكون مراسلاً فيها لديه بالاسم فقط، فللمساعد والآمر أكثر من مراسل تخصص كل منهم في شأن معين. ولكنه اشترط عليّ أن أهتم بالقائد عند ذهابه في إجازاته إلى العاصمة، لأرتب له سهراته الخاصة، على أن يسبقها ترتيب سهرة مناسبة للمساعد، ليتحقق من جودة البضاعة ! ووعد المساعد بأن أقوم بإجازتي قبله

بأيام لترتيب الوضع .. وهكذا ابتسم لي الحظ من جديد، وبدأ مشواري الأكثر خصوصية، في خدمة علم بلادي الغالية .

- بيكك*، ونيبيبي،،، وهيصة ؟

ألا تأكل الآن يا قيس ؟ "مزمز" على الأقل .

ولم يتبعها بدر بتعليق لعله كان بحاجة لخوض غمار حبكة، لم يشأ أن يفصله عنها أي عائق فانخرط بدر يقول :

وإليك تفاصيل الرحلة الجديدة، وربما الأهم في تأريخ خدمتي الإلزامية . فما كدت أنتقل إلى مكتب مساعد الآمر حتى رتب لي إجازة أسبوعين كما وعد، يكون هو قد أجيز في الأسبوع الثاني منها، ولكي أرتب له كل ما لدي من أمور تفتنه، وماذا فيها فترتيب أمور الأسبوع الثاني لا تأخذ مني أكثر من ساعات، وسأقضي الأسبوع الأول في العربدة، والعودة لليالي البرتقالية. هكذا أبدلت تسمية الحمراء المقيتة . أو الزرقاء كما يحلو للأجانب تسميتها . ولكني كنت حريصاً هذه المرة من إعادة تنظيم وضعي مع زبائن الأمس .. بحجة أنني مراقب هذه الأيام خصوصاً ضابط مكتبة الدفاع، وأفهمت نعمان بأن يكون حريصًا على أسراري، وأن يبتعد عني قليلاً لنفس الغرض، خصوصًا وإنني وجدت في شخص المقدّم نجم نفس البديل لنعمان، ولسعفان الذي ما يزال يفيدني في مقر وحدتي . وأخذت أرّتب مخططا حاولت دراسته مع نعمان، راجعنا فيها كل أفلام المخادعات الغرامية، وقوائم الابتزاز، فبذلت كل ما بوسعي لكي أجعل أول مرّة مميزة، وفريدة . فاتفقت مع نعمان على أن تقوم بتمثيل الدور واحدة من بنات الهوى اللواتي نعرفهن مقابل مبلغ مغر . حتى وقع اختيارنا على صديقة هوى كانت تحبني، فمثلت عليها دورًا مزدوجًا ينطلق من نقطة ضعفها، وهو لو أنها تحبني حقاً فلسوف تبذل جهدها في راحتي وتواجدي معها لفترات أطول، وما عليها إلا أن تقوم بتمثيل دور الخطيبة، لكي أقدمها للمساعد رغماً عني إذ ليس من شيء مميز أن يأتي المساعد ليعاشر فتاة تقبض منه . أو مني وهو يعرف أنها مأجورة وسوف تعاشر غيره بعد ساعة على الأقل .

وقبلت ميّادة التحدي . بل وأجادت الدور، ربما لأنها عكست صدق مشاعرها تجاهي أمامه، وقد حدثتني بأنها، وبعد أن اصطنعتُ أنا حكاية ذهابي لجلب حاجة إلى البيت، وبقائها مع المساعد لوحدهما . أن قامت بالتمنّع، ورفضت لمسها لأنها سوف تنتحر، وبدأت تذرف الدموع، وتستعصي عليه حتى نال منها . وبالمقابل كنت قد أفهمت المساعد أنني مضطر لتركها، وعليه ألا يؤذيها فهي من عائلة محافظة، وليست من أولئك. فتنطلي الحيلة، ولم تسع المساعد سعادته حتى إنه نسي أن يذهب ليزور عائلته، واكتفى بمهاتفتهم خوفاً من شكّ .

وصار لي تميّز خاص في تعامله معي، وعندما نكون في الإجازة يتبعني مثل نعمان، ويخدمني أكثر منه، وفي المعسكرّ لا يتنكّر لي خصوصًا عندما نختلي لوحدنا .

ولما جاء ترتيب موعد إجازة القائد، وذهابي في إجازة قبله بفترة معقولة. لم نوفق لا أنا، ولا نعمان بتدبير "قح ... ة" مناسبة للقائد، فليس من المعقول أن تقوم مي، أقصد ميّادة بالدور نفسه هذه المرّة ولا بنفس السيناريو، لأن المساعد، ربما يكون قد لمّح لآمره ببعض خفايا القصة، حرصاً منه على بقاء مي معه للمرّات القادمة . وكأن حظ الأمر في كل شيء تعيس، فلم تحسن من توسطنا بها أخيرًا حبك السيناريو. وقد لاحظتُ ذلك في عيني القائد، لكنه كان قد بلع الطعم، ولم يستطع التراجع، خصوصاً، وإنه كان يطمح بمن حدّثه عنها المساعد، حيث سألني عندما ودعني في البيت عن حال خطيبتي بالاسم، وأن أهديها السلام، وللحظة كنت سأخسر كل شيء عند استغربت من سؤاله وأردت أن أقول له أنني لست مخطوباً ولكن بقدرة قادر تذكرت مي عبد الناصر، وتصنعت الحزن على مرضها، ومعاناتها من أزمة نفسية لا أعرف ما هي حتى الآن ؟ ملمحاً لزيارة المساعد من طرف بعيد . وكأنه فهم مقصدي، وأسف على حظي ومستقبلي فربت على كتفي مودعاً :

- عليك بخطيبة جديدة لكي تسعدنا معك .

ولكن العز لا يبقى على حاله، فما أن اشتعلت الحرب الطويلة حتى نقلت كافة القطاعات إلى الجبهة، ولم يمض أكثر من أربعة أيام حتى وجدت نفسي وجها لوجه مع القائد، وشاءت الظروف أن تتجحفل كتيبة دباباتنا، ويكون أول الضحايا المساعد الذي أصابته مدفعية مرتدة، تشظت أشلاؤه كما تنتشر الأصباغ الملونة على الجدران. وكان من حسن حظي أن أكون بعيدا، في أ مرة القائد وقتها. ورغم تلك الظروف المتسارعة، فقد عرفني القائد على آمر الفيلق الذي تربطه قرابة به، وجاء ليزور القائد زيارة ميدانية، فأدخلني القائد، وعرفني عليه دون تكليف، مشيرا إلى أنني من سيقوم بالترويح عن سعادته، لو أنه ذهب في إجازته، ولم يعر الآمر أي انتباه لقول القائد في بداية الأمر، ربما لأن الهيبة التي أحاطته، والصراحة المباشرة التي تفاجأ بها هي التي جعلت الآمر أكثر حرصا، ولكن ما أن أشار القائد للحديث السابق عني حتى تغير كل شيء، فالتفت الآمر لقريبه يوصيه بالإكثار من إجازاتي .

وفي أول فرصة كنت قد بدأت أتمتع بالإجازات الطويلة هذه المرة، فليس هناك من مراقبة دورية في الجبهة، فحاولت الآن أن أسجل قائمة هامة بالمحظيات النجيبات، من الناشطات في الترفيه الرسمي عن حماة الجبهة الشرقية، ومن غير المعروفات على الأقل في محيطنا . وأقول لك إنني كثير السعادة، محظوظ للغاية، محسود من الجنود الذين يعرفونني، ومنهم من يحصل على إجازات مثلي ولكن بأثمان من قوتهم، فالبعض كانوا يتكفلون ببناء دار الضابط كافة تكاليفه . والضابط يستلم الدار، ومفاتيحه أتاوة لإجازات الجندي البناء . أو الكهربائي . المقاول لمساعدته على إعالة أهله وأولاده بدلا عن تركهم عرضة للجوع، وأمره للعلي القدير . وقد حدث أن اغتال أكثر من ضابط الجندي الذي أنجز له بناء داره برصاصة، في خطط محكمة الدهاء كأن يقتل من الخلف في معركة مكافأة له، وخوفا من إفشاء سره، وافتضاح أمره . ولا يكتفي بذلك . بل يقوم بإرسال الجثة لأهله على كون الجندي أعدم لجبنه، حرصا من تجاسر أهله بالسؤال عن كيفية استشهاد

عزيزهم مثلا . قصص كثيرة لعلك تعرف منها ما هو أكثر وأصعب وأقسى، ولكن دعني أنهي قصتي، وسوف يكون لنا أيام طويلة تحدثني عنها .

ولنعد لقصة آمر الفيلق لقد كانت مواهبه أهم، وأعظم ممن مروا على داري العتيدة، شعار * أصلي . يرقص أحسن من أية راقصة، ويهز وسطه مثل سهير زكي، لا والله مثل الراقصة ملايين التي اشتهرت الآن على يد سمسار بحر الجنون . بل إن الأمر لا يخجل من إبقاء السدارة على رأسه بكل نياشين الخيانة التي تقلدها من ذبح الآلاف . ومع هذا لم يدم العز الجديد طويلا فقد جاء هذه المرة من أهلي، الذين اضطروا للسفر من السويق إلى أمريكا بعد حصولهم على "الغرين كارت" .

وعلى الرغم من إنهائي لفترة خدمتي، فليس هناك من مجال لتسريحي بأية وسيلة كانت . ولا أحد يجرؤ على الحديث بهذا الخصوص أبدا . فما العمل ؟ كان علي رسم خطة ما، وإلا تعفنت في الجيش طوال عمري !! وعلي الإسراع قبل أن ينتهي العمر . وفي الحقيقة لم يكن يهمني أن أبقى . أو أرحل فكل الأمور سيان لدي، ولكن ماذا لو تبدل الحال، وحصلت أمور ليست في الحسبان، ففي الحرب ليس هناك أي ضمان . من هنا بدأت أخطط لترغيب الآمر بإرسالي في مهمة لشراء الإلكترونيات والعطور والملابس النسائية من السويق . خصوصا وإنه من الممكن أن يتوسط لذهابي في مهمة للحدود الجنوبية في ميناء وافل، لدى قريبه الذي حدثني عنه كثيرا، وقضى معنا إحدى سهراتنا في أن يمهد لنا الأمر .

ولم يجب الآمر علي مباشرة فقد كانت أهم خصاله، أنه لا يعطي وعدا دون أن يتأكد من كافة الإيجابيات ويدرسها، ويتحاشى المحاذير . ربما كان في حلقة من سلسلة ضباط مرتشين ومن عشيرة واحدة، يعرف أحدهم الآخر فيناور كل على جبهته، فمن جبهتنا كانت هناك تسهيلات شراء السجاد الفاخر المهرب بأبخس الأسعار، يمكن للآمر أن يرسل بيدي واحدة . أو "دزينة" لأقربائه في مواقع جنوبية متقدمة.

وهكذا كان، فقد حملت في إحدى الشاحنات العسكرية مجموعة تحف عجمية لآمر موقع الثغر . وبقيت هناك لأيام في عز وبحبوحة خصوصا، وأن الآمر هنا فضل أن ألتقيه بملابس مدنية، لكي لا يظهر الفارق العسكري من جهة، ولكي أبدو على أنني تاجر لا غير . وكان قلبي ينبض كل ليلة لكي أعرف كيف سيتم تدبير الأمر وأسافر إلى السويق . فقد كنت قد هيأت مي للذهاب قبلي لتكتري لنا شقة، نوينا أنا ومحبوبتي، فيما لو نجحت في المرة الأولى، أن تتكرر رحلاتي فتزداد الغنائم، لهذا لم أحاول تصفية بيتي، وأوصيت نعمان الاهتمام به والظهور كما لو كنت موجوداً .

وقد قام صديق للعائلة في السويق بتمهيد كل التسهيلات لمي. كيف لا أصطحب مي معي وهي يديّ، ورجليّ، وخلفيتي التي أحتمي بها وهي من تدير أعمالي النسائية على أتم وجهه . ولم يطل انتظاري كثيراً فقد اتفق قريب الآمر في الثغر مع ضابط أمن سويقي على استلامي والتساهل في عملية وصولي، ولم يكن الأمر غريبًا وقتها فالسويّق كانت الربيبة، والعزيزة التي تمهد السبيل لاستعار نار الحرب بين البلدين "العديقين" وتشعلها كلما خمدت، وتمد بالملايين لقتل خيرة أبنائنا أو فقدانهم . أو هربهم. أو إعاقتهم .

لن أطيل عليك فبعد وصولي مدينة السوّيق واستقراري لعدة أيام، وأنا أحمل معي حقيبة دنانير سمعت مي تحدثني عن المخاطرة في العودة، وعن إمكانية البدء من هنا . بل إن أمور بقائي في السوّيق لن تطول لأكثر من عام ريثما تأتي أوراقي من أمريكا وأرحل . فمن يضمن رجوعي لو عدت للوطن من جديد وأنا بين المطرقة، والسندان، وبين أنياب آكلي لحوم البشر نيئها ومحروقها . فتدارسنا الأمر، وأولها مسألة البيت فماذا سيكون مصيره؟ هل أتركه هبة لنعمان . أم تذهب مي لتصفية أموره ؟ وماذا لو كُشف أمرها؟ ففضلنا البقاء أخيراً، والانتقال من الشقة بأسرع وقت وتبديل كل الأوراق خصوصاً، وأن دخولي كان بأوراق مزوّرة يمكن التلاعب بها لو ساعدنا أحد، فجواسيس جلادي الوطن كانوا مطلقي العنان هنا في السوّيق، يرتعون بفضلات سمومهم، وأقل ما يحصل لأحد هو التصفية الجسدية .

فعزمنا أن نبدأ مشوارنا كما كنا في بيتنا، ولنشرع بضابط أمن الحدود، الذي سهل دخولي، فذهبنا نشكره، وقدمنا له هدية، ودعوناه على عشاء بريء، وما أن تناول عشاءه حتى التفت إلي يطلب العرق الزحلاوي . فعجلت به، بعدما جاءت البادرة الحارة منه، وصار بيد مي مثل الخاتم . فغيرنا الأوراق، ولبسنا الزي السويقي وأعلنا عن المهنة الجديدة .

وتوافد العديد من الغاوين، وكلانا متلهف على استدراج المتعجلين للاغتناء السريع . ولكن مسعانا خاب فالسويقيين لا يرغبون بغير السكر وقضاء الوقت كله في الديوانيات الرجالية يرقصون ويلعبون الورق . فيسحرون برقص الأولاد . بينما بناتهم يفتكن بأعراض الشباب تصل لحد اغتيالهم ورميهم في البحر .

ألا تصدق ما أقول ؟

هاك ما حصل معي يا قيس . فقد حدث لي ما أجبرني على الهرب إلى هنا، قبل مجيء أوراقي بأسابيع، ففي مرة كنت أتجول في الزاحمية، وقفت سيارة تسوقها زنجية كأنها أخت مسعد الناطق الخالق، وسألتني عن الطريق الموصل إلى الثغر، فأشرت لها بالتوجه إلى الفوصة الثغرية عن طريق الهجران فلم يبدو عليها أنها فهمتني .. وطلبت مني أن أرافقها، ولما أبديت تحفظي لأنني كنت أنتظر مي لتأخذني من المكان بسيارتنا التي فضلت أن تكون هي التي تقودها . فطمأنتني جوهرة "هكذا كان اسمها" بأنها ستعيدني مباشرة حالما تتعرف على بداية الطريق بحجة أنها دنجية جاءت على عجل لتشتري جمار ثغري توحمت عليه سيدتها ولما كنت متفقا مع مي على رموز حتى عند مهاتفة بعضنا البعض، وفيما لو تأخر أحدنا أن نتوسط بأعواننا عملاء "البلاك ليبل"، فقد ركبت لأكون أنا رجل الجمار الذي توحمت عليه سيدة جوهرة . جمار ثغري أصيل .

فما أن صعدت السيارة حتى أسرعت جوهرة بقفل الأبواب من جهتها، وهددتني بالموت لو حاولت الاستنجاد . وكان من طبعي أن أستوعب المحن بسرعة وامتص حتى نقمة العدو مهما كانت، فقهقهت على عجل، وقلت لها

لم الاستنجاد، فأنا لا أفهم سر العجلة . لعل سيدتك لم تذق جمارا ثغريا طازجا منذ فترة طويلة، ألم يشبعها الجمار الدنجي، فنظرت من زاوية عينها اليمنى، وابتسمت لي بخبث وارتياح . وقالت :

- أي جمار، وأي دنجية .. المتوحمة سويقية ؟

وعرف كلانا سر اللعبة .

وما أن وصلنا إلى المزرعة حتى أقفلت عبدة ثانية البوابة الإلكترونية وراءنا، وتوسطنا بهوا فخما، كل ما فيه حريمي إلا أنا .

و ... وبت ليلتها في أحضان السعادة ولم أتذكر قلق مي علي، ولا آخر ما ينتظرني هنا، فقد تصورت أنني سوف أصحو في الصباح لأودع مضيفتي . وأعدها بالقدوم دون خطف، وترتيب . وعلي أن أجد تبريرا مناسبا لمي في مبيتي بعيدا عنها . ولكن الواقع كان شيئا آخر، فلم أصحو إلا لأجد نفسي مقيدا إلى السرير، والغرفة معتمة، وقد أسدلت ستائر سوداء خلف الستائر الأصلية، ولما اعتادت عيناي على الجو ميزت ما في الغرفة : فهي نفسها غرفة نوم خليلتي التي كانت حريصة على عدم الظهور بإضاءة كاملة، ولم أكن مهتماً لوضعي كما يبدو لخدر، وكسل في جسدي كله، ولأنني لم أقدّر ما الوقت، أأنا في الليل أم في النهار، وفي أي ساعة، أخذتني غفوة عميقة تداعت خلالها أحلامي، ولكنها لم تكن واضحة، وإنما لا تعدو عن دوّامات وفقاعات وأنا أقهقه طوال الوقت، عرفت بعدها كبر جرعة الأفيون التي أُسقيتها، فعلى الرغم من ممارستي كل أنواع الفجور، والفسوق، لكنني لم أقرب حتى تلك الليلة أي نوع من المخدرات .

وصحوت على جسد المعشوقة يحتك بي بشوق، وغزارة رغبة، وكأن دبة شمالية فقدت ذكرها . وجاءها صيد بشري ثمين ترغب احتواءه بكل ما لديها من شبق قبل أن تأكله وهو في أنفاسه الأخيرة، وقد كان حالي هذا لليالي لم أقدّر كم هي . حتى كان يوماً عرفت أنني في حاجة لتغذية خاصة، وإلا مُت . ويبدو من حسن حظي أنني كنت قد نلت حظوة لدى السيدة ونالت فعاليات الجمّار استحسانها فطلبت تغذيتي بعسل الملكات، الذي ذقته لأول

مرة في حياتي هو الآخر، ومنع عني المخدر . وسمح لي أن أصحو صباحا، وأقوم بلا قيود، ولكن لا خروج من الغرفة، ولا يدخل علي غير جوهرة .

فماذا علي أن أفعل لأنجو ...؟ أجبني يا قيس .

كان أهم ما فكرت به منقذ . ولما لا يكون جوهرة نفسها، وقد كانت بحق جوهرة سوداء تحتي . وتوسلت إلي أن أكتم أمرها، وإلا فالموت لكلينا معا . فوعدتها بصدق رأته في كل حواسي . وكل خلية في جسدي وأنا معها في ساعات النهار . ومع سيدتها في ساعات الليل. عرفت الدلال، ولكن ماذا بعد. علي أن أنقذ رأسي . وقد مر علي كما خمنت شهر، ولن تدوم قوتي مهما بلعت من عسل الملكات . فأملت جوهرة بإنقاذي بأية وسيلة، وما عليها إلا أن تهاتف مي، وتخبرها بالمكان . فخشيت جوهرة من الخطة، ولكنها أجرت عليها تعديلها المناسب وهو بأن تقوم هي بإخراجي إلى مكان محايد.. وتأتي مي لأخذي . وعليها هي أن تدفع الثمن . وربما تفكر في إيجاد الحل في الوقت الذي ستبدو بوادر الملل لدى سيدتها، وجوهرة تعرف حينذاك ما المطلوب منها. وهو إيجاد البديل قبل التخلص من الأصيل. لهذا طال انتظاري، وفي كل مرة أسأل جوهرة عن الهرب تأملني خيرا . حتى جاءتني يوما، وألبستني كيسا في رأسي . وأخذتني عند الغروب إلى المكان الذي اتفقت فيه مع مي بالهاتف وعندما ودعتني أفهمتني بأن علي مغادرة السويق بأسرع ما يمكن .. وألا أظهر علنا في الأمكنة العامة . وكانت مي حاضرة ومعها مرافق أمين، وفيزة يونانية فركبنا معاً على طائرة واحدة دون كلام . وما أن نزلنا في مطار أثينا حتى فُتحت عقدة لسانينا، وكلم كلانا الآخر عما حصل، وقد خمنت أن الأمر كان قد صدر لجوهرة بالتخلص مني، بالقتل ورمي جثتي في البحر، لكنها آثرت الإبقاء عليّ وهذا ما فهمته مي من ألغاز جوهرة أيضاً .

وها أنت تراني معافى . بدأت حياتي من الصفر لوفاة والدي قبل وصولي . وماتت أمي بعده بسنة، أي بعد وصولي بأشهر قليلة، وأخوتي كل بحاله .

وما أن انتهى بدر من سردياته إلى هذا الحد وهو يقهقه محاذرا، حتى انتبه قيس بأنه كان يعبث في أوراق اللعب التي لم يكن يعرها اهتماما كبيرا عندما كان يصغي لمغامرات بدر، وهو يسردها كحكايات ليس بمقدور قيس الآن أن يعطيها النكهة الخاصة التي تميزت بها طريقة بدر الساحرة، وكأن بدر هذا غير ذلك البدر الجلف أيام الطفولة . وسحب قيس ورقة من تحت أوراقه التي كانت لسبب لا يعرفه منفردة على الطاولة، وليست بين يديه، فوجد ورقة تتناسب بما يحمله بيده، وربما تكون الورقة الوحيدة الباقية، فهتف :

- رستك، أكشف عن ورقك .

- كنت .

- ستريت فلوش .. خسرت يا بدر .

وبينما كان قيس يلملم ما أمامه من أوراق نقدية أخيرة، أخذ بدر يندب حظه .. بافتعال مقصود، ناسيا . أو متناسيا ما حدث قيس عن نفسه قبل لحظات . وجاءت زوجته لتدير لهما الشراب في الحال، فقدمها بدر لقيس باسم مي منتصر . وتداعت لدى قيس كل القصص والملاحظات التي ما يزال المحيطين به يحذرونه منها، وهي ألا يقع في مصيدة مي وزوجها ولم يكن قيس يعرف أن بدر هو زوج مي ذاتها. بدر هذا الذي بحث قيس عنه لأعوام، لأن شهرة مي قد طغت على بدر، وتصدرت كل أحاديث المجتمع، فمن يتذكر اسم زوجها، وإن حصل فللتندر فقط . فكلما سردت قصص مي وزوجها، لا أحد يذكره لا من قريب ، أو من بعيد . فلماذا لم يحاول بدر إخفاء اسمها في سرده للقصص، ربما يريد الإيحاء لقيس بأن مي جاهزة كما فعل مع مساعد آمر . لقد صار بمقدور قيس الآن أن يضيف للقصص ذكريات بدر التي سمعها لتوه . ويتذكر قيس أن أغلب من كانوا حولهم في مطعم صحارى يتحاشون الاقتراب من مائدة بدر، رغم حاجتهم للعبور إلى المغاسل من طرفهم، فكانوا يستديرون من الطرف المقابل لأداء الواجب المقدس، إلا ذلك المستطرق الذي جاء من غير مقدمات، لعله كان قد دبر مع

بدر شأنا يقومون به في كل مرة يكون بدر مع أحد الفئران التي يصطادونها، فحكى بصوت مسموع قصة الابن غير الشرعي، الذي لا وجود له كما يبدو، لكي يوحي قيس على الأقل بأن بدر يعيش لوحده، وأنه أعزب، ولإيهامه بأن لا ضير من قبول دعوة في بيته، ومن ثم التورط في لعب القمار .

ولهذا كان صموئيل محاذرا، وحرجا، ويريد إتمام واجب التعريف على عجل، ولكنه لم يبادر لتحذير قيس مما هو مقدم عليه، ربما لأن صموئيل لم يتصور أن قيس لا يعرف بقصص مي منتصر، وأنها هي زوجة بدر بالذات. خصوصا وأن صموئيل يعرف أن قيس قد سمع بقصص ضحاياهما الواحد تلو الآخر، مثل قصة انتحار فوزي البصري، وزميله عمر السلطي اللذين رميا بنفسيهما من النافذة بعد خسارة زوج مي، لأن جرس الباب كان قد قرع فجأة، وأوحت مي لهما بأن الشرطة قد جاءت لتكبس البيت . فلملمت الأموال وتخلصت من القضية ببراعة . بل أقامت دعوة تشهير على زوجتيهما، وكسبت مرتجعات وهمية لها منهما .

كذلك تسببت مي في هجرة زوجة فادي الحلبي، وإفلاس شركته، وهناك الكثيرون ممن دخلوا مدرستها، وتخرّجوا منها إما إلى السجن . أو الآخرة ويقول قيس لنفسه :

- ربما سيحاول الآن أن يطلب الاستمرار في اللعب بعد أن أعلن إفلاسه. أو تظاهر بالإفلاس، وفيما لو تساءلتُ عن رصيده فسيقول بأنه لا يملك شيئاً إلا، وسوف يومئ إلى زوجته التي تقف ورائي الآن.

ذلك ما حفظه قيس عن ظهر قلب لأنه تردد على أكثر من لسان من ضحاياه .

ولكن لماذا أنا بالذات؟

وما الشيء المميز فيه، ذلك ما حاور قيس نفسه عنه بسرعة، فلا مال، ولا جمال . إن في ذلك سرّا يخفيه بدر . وحدّث قيس نفسه من جديد :

أيعقل أن تكون غيرة بدر متأصلة بشكل مرضي هكذا ؟

وتذكر كيف استثير بدر عندما ذكر قيس اسم شهباء . وفعلا حدث ما خمنه قيس، إذ وجد مي خلفه، وميزها في المرآة التي أمامه، فقد مالت على كرسيه، وملأت أنفاسها شحمة أذنه، وقام زوجها بدر بالتعريف . وفكر قيس من جديد :

هل تستطيع فعلا ميادة عبد الناصر التي صار اسمها مي منتصر بأن تغري الرجال، رغم أن ما لديها لا يثير أفطن الرجال وأغباهم . لكن هناك كثير من الرجال لا يهتمون إلا لأتفه الأمور .

- وهتف قيس بسرعة وهو ينظر إلى ساعته بأنه متأخر عن موعد هام عليه أن يكون في المكان خلال ربع ساعة .

وبدقائق وجد قيس نفسه في الشارع تاركا ما ربحه على الطاولة، وناجيا بنفسه، مفكرا في كيفية اكتشافه الورقة التي لم تكن من بين أوراقه، ربما كان بدر قد زلقها لقيس بقصد إرباحه عمدا كما يخسر الضباط أنفسهم عندما يلعبون مع قائدهم في الثكنات . لقد كان الأمر بالنسبة لقيس نوعا من المجازفة في الغش، ربما للمرة الأولى، ولكنه لم يقدر عواقبها إلا الآن وقبل فوات الأوان .

وقام ليحمد حرصه في تفادي الأمور في اللحظات الأخيرة، وليلعن أمنياته في التورط مع صديق طفولته الذي تداعت ذكرياته حوله طوال سنين كثيرة . ولم ينس الحجارة التي كان يتعثر بها، ولا تلك الحجارة التي كان يرميه بها بدر في طفولتهما، فها هي حجارة من نوع آخر يرميه بدر بها، وربما لا تكون آخر الحجارة .

الهوامش :

* السدارة = قبعة مخروطية اختص بها الملك غازي، فصارة تقليدية للعراقيين الرسميين بلونها الأسود، وباللون الكاكي للعسكر .

* الصبان = مقلاع صغير يستخدمه الأطفال في ألعابهم، وربما في صيد الطيور .

* القاويش = هو عنبر راحة الجنود، أو المرضى في المستشفيات .

* أيها القواد، اعمل لي حلا ما .

يأخي أنا بمروءتك، أين يمكن أن يكون تنسيبي ؟ اعمل لي حل .

* البيكك = كأس الخمرة .

*شعار

القلعة

عندما كان محمود يسمع بقلعة أربيل، قبل أن يتعين معلماً لمادة الجغرافية هناك، كان يتصورها إحدى الحصون المنيعة التي لا يقهرها إلا قائد غازي، خصوصاً، وأنه قرأ أخيراً أن إسكندر الكبير الملقب بالمقدوني كان قد اتخذ من أربيل وقلعتها بالذات مقراً له، عند تقدمه شرقاً .

ويقال : إنه تزّوج فيها بأجمل جميلاتها . وإنه مات فيها، ودفن عندما اتجه غرباً، ولم يكن يبعد عن دجلة غير مسافة ليلة ونيف لكي يرتوي من عذب أحد الفراتين .

لهذا لم تغر محمود فكرة الصعود إلى قلعة أربيل كثيراً، لا بالسيارة، ولا راجلاً لأن البيوت المتراصة كالسور حول الشكل شبه الدائري للقلعة لم تعطه ذلك الانطباع بالمنعة .

الشيء الآخر هو أن ارتفاع القلعة لم يغره هو الآخر، فهي ربوة رصفت حولها البيوت كلها ليست كالقلاع العالية الحصينة . ربما لأنه ما زال يتخيّل القلاع للدفاع لا للعيش . ولربما كان لعوامل الزمن من جهة، وعناصر التحضّر أسباب في جعل الطرق المحيطة بالقلعة ترتفع يوماً بعد يوم بفعل الترميم، وإكساء الشوارع بطبقات الأسفلت طبقة فوق أخرى ..

لكن ما حدث أن تحسين باغته وهو ينعطف بسيارته صوب شارع القلعة صاعداً إليها، فلم يعر محمود الأمر أهمية، فقد تصوّر أنه سوف يدور حول القلعة في الشارع الدائري الذي يوصلهم إلى محلة صيداوة كما يفعل غالباً، عندما يقلان شيركو المتناوم في المقعد الخلفي للسيارة، إلى بيته في آخر الليل .

ولعل شيركو المتناوم الآن يخشى فكرة الوصول إلى البيت، بعد أن خسر راتبه الشهري في نادي الموظفين أول يوم من الشهر . وقد خارت قواه لأن امرأته سوف تطرده من الباب . أو تشبعه ضرباً، وتملأ الدنيا صراخاً .

إن شيركو الذي يبدو عليه أنه نصف نائم، قد أثرّ بتثاؤبه المتعمّد ربما على حالة محمود فراح يغفو هو الآخر، ما دام لا حوار يفيد في نصيحة، ولا شيء يغري في الكلام، فمنهاج أول يوم في الشهر أصبح معروفاً لدى الثلاثة . لهذا استغل تحسين الفرصة في الصعود الحذر دون ممانعة، وتوجس . ولعل شيركو كان قد عرف . أو خمّن . أو اتفق مسبقاً مع تحسين. بل وتمنى لو أن تحسين يبعده عن بيته، ولو لهذه الليلة فقط، طالما تكرر نداؤه في كل شهر، لكن ممانعة محمود في كل مرّة تكون السبب في إعادته للبيت، وتحمّل النتائج من زوجته .

لهذا تناوم شيركو خشية بقاء محمود صاحياً، ورفضه لمقترح تحسين الذي كان يعيده كل أول شهر وهو : أن يأخذ شيركو ليبيت لديه في بيته في حي القلعة، بينما يرفض المقترح محمود دائماً، بحجة أن على شيركو أن يتعلم الدرّس، ومواجهة واقعه المرّ .

وهكذا حدثت الأمور هذه الليلة فجأة، ودون أية ممانعة، حتى توقفت السيارة أمام بيت تحسين . ولأن محمود أطول قامة من تلك الأبواب العتيقة، وقد غاصت عتباتها تحت ارتفاع رصيف الشارع المتجدد البلاطات كل يوم فقد اضطرّ محمود أن يحني رأسه ليدخل بيت تحسين الذي كان يجرّ شيركو من المقعد الخلفي .

هناك فقط عرف محمود أنه قد صعد إلى القلعة ليس ككل الغزاة، ولكن مثل أي أسير . ولم تتح له فرصة التفكير لأن تحسين أفرد المفتاح من بين مفاتيح السيارة قائلاً :

تحسين : افتح لنا يا أبا شاكر باب القلعة .

وفي حوش الدار عندما نظر محمود إلى السماء الصافية، وقد انحسرت بين جدران الباحة الأربعة، تلألأت النجوم مثل ثريات، أحس محمود كم كان عنيداً، ليفقد هذا الجمال طوال سنتين قضاهما معلماً في مدارس أربيل، "هولير، كما يلفظها الأكراد باللهجة السورانية" ولن يبقى على نقله جنوباً إلى قلعة سكر غير شهر . فتحسّر، في سرّه، وأقرّ وقتها سرّ إعجاب القائد

المقدوني بهذا الهدوء الذي يسمح للنجوم أن تتكلم . بل وتتحاور فيما بينها، وربما لو طال مكوثه لعرف سرّ محاوراتها، ولحاورها هو الآخر . ولكن محمود لم يعترف بالذهول الذي انتابه عندما سأله تحسين عن رأيه قائلاً :

محمود : لا شيء جديد، الأمر عادي جداً .

ولم يدر محمود لماذا غاب عن باله تخيّل القائد صلاح الدين الأيوبي ابن هذا البلد . فلربما يكون الأيوبي قد ولد ليس بعيداً عن هذه الدار بخطوات، وإلا لما بنى قلعته المتساوية الارتفاع لقلعة أربيل في فسطاط مصر .

ويبدو أن المقدوني كان له تأثير أقوى على محمود وقتها، ربما لأنه اعتقد بأن بقايا من رفات المقدوني قد امتزجت بتراب قلعة أربيل، لو صحّت نظريات بعض الآثاريين، لأن صدى ما تذكره محمود عن صلاح الدين يبدو أقل بكثير على محمود ليس لعدم حبه وتعلقه بإنجازات القائد العظيم، ولكن لأن التأثير الفيزياني قد يفرض نفسه في كثير من الأحيان .

لكن لو سنحت لمحمود فرصة زيارة قلعة صلاح الدين في القاهرة، فلسوف يبيت بين جدران دار فيها، وحينذاك سوف يسعد بالمقارنة .

وطاب لشيركو أن يبيت لدى تحسين، وما على محمود إلا أن يطرق الباب على جارته زوجة شيركو ليقول لها : بأن زوجها قد ذهب إلى قرية محمود لمساعدة محقق العدل في قضية طارئة . وإلى أن يصبح الصباح، ويتدبر أمره، ويستدين ما يقيه شرّ السؤال، تكون امرأته قد ركنت إلى يأسها الشهري من جديد .

غير أن محمود تعلل بالصداع، وطلب فراشا وسط باحة الدار، ليستلقي على ظهره، وليجري ما يجري هذا الشهر . فعلى زوجة شيركو أن تعتاد، وتركن للأمر الواقع، فلن يبقى لها بعد اليوم، وربما لفترة قصيرة وسيط مثل محمود .

ولن يدع محمود الفرصة تفوت عليه في محاورة أولى، وأخيرة يسمعها بين النجوم، يكون فيها الوسيط بينها، وبين ما كان يمكن للمقدوني أن يقوله

لها دون حاجةٍ لمنجمين، وعرّافين . لا وسـيط بيـن معـاقر القمـار، وزوجتـه المخدوعة .

النفق والجسر

لا يعرف هلال الممثل التلفزيوني المعروف كيف وجد نفسه مع نوّار في كوستاريكا عندما دعيا لتمثيل مسلسل طويل عن الاغتراب يتنقل بين بلد، وآخر وظنّ أنه في حلم أشبه منه إلى الواقع . أو كأن المسلسل لا يعدو أكثر من واقع جديد بتغيّر البيئة من حوله دون علم منه . فكل شيء يشير إلى أنهما وصلا في رحلة سريعة هامة . أو مهمة رسمية كرحلة أمين عام لهيئة دولية عظمى .

وكما يبدو، وبما أن نوّار ابن البلد نفسه بعد مرور أكثر من عشرين عام مغترب في هذا البلد، لهذا أصبح هلال الضيف الذي يتم الاهتمام به على كافة الأصعدة، يقوم الكل بالترحيب به، والترويح عنه، وبخاصة نوّار ومن خلفه جوق من رجالات الإعلام والصحافة .. يسألون هلال عما يحمله من مهام وأخبار ؟ وهل سيوفق في مهمته هذه أيضاً ؟ فيحار هلال في الجواب، ولا يجد له منقذ، فيبدو محاطاً بكابوس يعد عليه أنفاسه ويخنقها .. ولأن الشوارع مترِبة والناس في قيظ الحرّ وقفوا على أبواب دورهم، فقد تخيل هلال نفسه في السودان ولا يدري لما السودان بالذات ؟ هل لأنها كانت محطته الأخيرة قبل كوستاريكا ؟ أم لأن في السودان قلبًا قد تركه هناك ؟

وكانت إحدى المحطات، بيت كبير بدهاليز لبيوت أخرى تبدو كأنها مداخل لبيوت في حواري الموصل . أو كربلاء . أو القدس . أو روما . أو استانبول، لكن هذه البيوت مثل الخانات وضعت قطع الآثاث بترتيبات تبتعد عن الجدران لتفسح المجال للدخول والخروج من الأبواب الكثيرة، والدهاليز المكتظة بالناس، ولأن الدهاليز كالثقوب في كل جدار، فإن هناك ناسًا يذهبون ويعودون من غير انقطاع، ونسوة لا تتبيّن ملامحهن من قوة الظلال وكثافتها، أو بالأحرى الظلمة القاتمة.

إن الناس هنا ونتيجة للرطوبة والظلام لا يعانون من شدّة الحرّ كالذين رآهم هلال في الخارج، وإنما لهم حدقات قططية واسعة، يذكرن بالنساء اللواتي لبسن السواد من نساء العراق الجنوبيات وما زلن وبالذات الكربلائيات منهن: فوط ومليات و(جراغد).

إن هذا البيت المركّب بطوابقه، وأجناسه، يبدو كعالم مستقل بحد ذاته، يحتاج إلى سياحة خاصة، فمن أحد أمكنة هذا البيت المتعددة يظهر أبو جميل، ويبدو للوهلة الأولى أنه يمتهن التدريس، أو أنه إداري في مدرسة، كأن يكون معاوناً لمدير مدرسة، لكن يده حينما تمسك بالأثاث، وبخاصة الأطرزة القديمة، والمتنوعة منها تبدو عليه مهارة يد حريفة يد سمسار أثاث، فيسأل عن الثمن بشكل يخاله هو مواربا يخفى على الآخرين.

ويتذكر هلال هنا تجواله الطويل مع نوّار في أسواق بغداد قبل أكثر من ثلاثة عقود وكلاهما يناقش الآخر عن أجمل التعابير في الصور الكلامية، ولم ينس هلال تحبيذ نوّار لمفردة التفاحة الصوفية التي كان هلال قد وصفها لنوّار في مطلع مقطوعة نثرية، لا تسعه الذاكرة الآن في نقلها حرفياً، ولكنه وصل إلى ما معناه : بأن المرأة تمسك التفاحة الصوفية لتغزل الحليب في فم رضيعها، وقتها تعجب هو نفسه من وصف يمازج بين كرة الغزل، وكرة الثدي .. وكأن هلال الآن يحس بأن نوّار الذي وجده قريباً منه، هو صاحب أحد هذه البيوت الداخلية. وأبو جميل يسأله عن كرسي "كنب" من خشب أسود . أو خشب ورد غامق، مترب وقديم :

- هل هذا للبيع ؟

فلا يجيب نوّار، ولكن أبو جميل يجيبه :

- كل شيء يقبله أبو جميل، ما دام للبيع .

فلا يهم أبو جميل أن يحمل كل ما لا يريده أي منهم على أكتافه.. وهكذا تتكرر أسئلة أبو جميل، وأجوبته لكل من يراه، ولكل من يعتقد بأن أبو جميل مسؤول عن قطعة من الأثاث في هذه البيوت الداخلية بقوله :

- أبو جميل كفيل بكم، ولا تهتموا .

خصوصاً إذا كان الجواب زجراً . أو نفياً . أو أن السعر مبالغ فيه مثل :

- ليس للبيع .
- هذا ليس أكلك .
- لو بمليون .

ويلتصق أبو جميل بالمكان مثل بُزاق لزج .. ولا يريد مغادرته .. وبما أن هلال وُجد هنا كسائح هذه المرّة . أو ربما كزائر رسميّ، فقد تبرّع أبو جميل تعريفه بالمكان، مستغلاً انشغال نوّار، لاستخدام هلال وسيلة للحديث من خلال تعريفه بالناس الذين يقايضهم على الأثاث، بقوله :

أبو جميل : إنني استشهد بهذا بالممثل التلفزيوني المشهور هلال .

أو بقوله :

أبو جميل : ألا تعرفون من يكون هذا الفنان .

ولو تجرّأ أكثر لقال مثلما يفعل المروجون عن بضائعهم من خلال فنان مشهور :

أبو جميل : إن الفنان العالمي المشهور هلال هو الذي يوصيكم بشراء . أو بيع كذا، وكذا .

حتى تتشكابك الأمور وتستدعي للاستهجان، والسخرية . ولكن ما يهم في الأمر أن المكان الكبير هذا لم يعد بالدار، وإنما صارت مداخل البيوت تؤدي إلى صفوف مدرسة ، أو كلية .. تذكر هلال بالأجواء التي يمكن أن توفرها مناظر "ديكورات" المسلسلات التلفزيونية، وبيئاتها، لعل وجود أبو جميل الذي عرّف نفسه كمعاون لمدير مدرسة ـ رغم ثقافته السمسارية - هو الذي أوحى لهلال بهذا التصور . بينما انشغل نوّار هذه المرّة مع أساتذة يبدو أنهم كانوا زملاء دفعته .. نوّار الزميل في الرحلة قد أصبح قريبا بعيدا عن هلال رغم وجوده في الصالة، ينتقل من مجموعة مدرسين إلى أخرى كعادته .. لهذا وجد أبو جميل فرصته مرة ثانية في هلال ليحدثه بتطويل مملّ عن مزايا أثاث الجامعة هذه المرّة .. مشيراً إلى أنها مؤسسة تابعة لهيئة المنظمة العليا، وغداً سوف تستولي عليها الجهة التي تفوز بالانتخابات .

ويبدو أن الانتخابات هي واحدة من أضغاث الأحلام التي يتأملها هنا الناس، لأن أبو جميل يقصد بالتأكيد : فيما لو حصل انقلاب، وغداً لا يبدو زمنياً قريباً، ولكنه تعبير مجازي لكلمة غداً، قريب قد يبعد أياماً وأشهراً، أو سنوات .

وفجأة يصيب هلال الملل، خصوصاً وأن طريقة أبو جميل اللزجة لا تختلف في حديثه بمختلف المجالات عن طريقته كسمسار، سواء تحدّث عن الأثاث . أو الكتب . أو السياسة . أو التأريخ . أو السياحة...

وينزلق هلال من الملل متراجعًا إلى البوابة شيئاً فشيئاً متأمّلاً في انتهاء نوّار من حواراته المتشعبة، ومع مجاميع متنوعة، وكأنه في سلسلة مجادلات لا تنتهي ومجاملات تنفتح أحاديثها مثل حكايات ألف ليلة وليلة، أو بتلك المجادلات التي لا تنتهي بينه وبين زميله الشقيق سعد والي فقد كان عناد الجدال لا يمتد لصبح الليلة الماضية، وإنما لليلتين، أو ثلاث ولم يعد لا للزمن، ولا للدوام في الوظيفة أهمية تذكر طالما يقف كلاهما مقابل الثاني مسافة زمنية، وفكرية .

ويقوم المعجبون بالتبرع بخدمتهم في تقديم الغذاء، فقد يقوم بعضهم بالذهاب للدوام في مكانهم، خصوصاً وأن الاثنين كانا صحافيين، وأبرزهم على ما يذكر هلال هو قاسم الربعي الملقب بالشريف في مسألة تقديم الوجبات السريعة، وحامد النهدي الملقب بالمطشّر في مجال التصميم لوالي بشكل خاص . أما من يتبرّع بالقيام بعمل نوّار، فليس ضرورياً فهو يستطيع إنجاز عمل أسبوع بساعات دون مماطلة، وبإتقان عالٍ .

وينقذ هلال من أبو جميل ظهور ليليان التي تبرز كالمنقذ في كل مرّة حسب الأصول لتشارك هلال نية الخروج، والرحيل إلى مكان آخر، غير الجامعة، خصوصاً وأن مدة زيارة هذا البلد ضيقة جداً . وبرمشة عين يخرج الثلاثة ليليان، نوّار، وهلال إلى فضاء مفتوح لم يعهدوه في هذه الظلمة الباردة وكأنهم يخرجون للتو من ظلام السجن، تمنى الثلاثة، وأولهم هلال أن يؤدي المكان الجديد إلى شارع العودة السريع. ويشعر هلال بوهج

الضياء المفاجأة من خلال تقلص عضلات عيونه، وتضيّق حدقة عينه . وفي بحثه عن النظارات الشمسية، لا يعجب هلال من رؤية الخارجين وراءهم، وهم يضعون النظارات السوداء على أعينهم، بكبرياء، وتعالٍ، ولا من إغماض الآخرين لعيونهم، كلهم بأعين نصف مقفلة، وقد انحنت أعناقهم إلى أسفل ...

ويسير كل من نوّار وليليان في المقدمة، وبينما يخشى هلال من أن يتبعهم أبو جميل، تدهشه الحرارة في الخارج، ويستغرب من أن الناس الذين رآهم أمام دورهم عند القدوم قد سبحوا الآن في عرقهم، وهم مغمضو العيون، وبعضهم يغطس في برك من الماء لا تبدو أكثر من رمال بيضاء يغوصون فيها . وتمسك النساء والفتيات بصنابير المياه، وقد غمرن أنفسهنّ في المياه للحظات، فيخرجن منها على استحياء، وقد التصقت الثياب عليهن فبدين مثل منحوتات أفريقية صهرتها الشمس . أما الصبيان فإنهم يسيرون بـ "دشاديش" جلاليب مبللة بالعرق، وقد التصقت على أعضائهم فبدت من تحتها بنية غامقة كفواكه غير ناضجة .

ويحس هلال في هذا القيظ بأن نجوم الظهر قد صار لكل منها هلال تابع وصارت الأنجم كثيرة، وامتلأت السماء بها كأنه في منتصف الليل، فيحس بالنعاس، وسرعان ما يتوفر له سرير يستلقي عليه، ويشعر كأنه ينام على سرير فوق سطح دار ريف عراقية في ليالي آب . ويغالبه نعاس شديد، فلا يستطيع اللحاق بليليان ونوّار فقد سبقاه في طريق العودة .

وبينما هلال مستلقٍ على السرير تمطر البستان فاكهة قربه من أشجار كثيفة، والناس لا تبالي بها . والفاكهة تزّخ كمطر ربيعي، فيتبّرع بالشرح من اعتبره هلال، مؤلّف المسلسل مؤقتاً رغم أن صفات أبو جميل لا تفارقه، يشرح له حالة هذه الفواكه، ومميزات نضوجها كأنه صهره المغرم بالشروحات العلمية وهلال يلتهم واحدة تلو الأخرى من تحت الشجرة التي تحوي كل أنواع الفواكه المهجنة ليس مثل بطل قصة حنين بلا ضفاف،

لمؤلفها الأوهاني . وإنما مثل مريض وصفوا له طول العمر بكوكتيل الفواكه الطازجة من شجرة واحدة ..

وها هو هلال يطبق في الحلم ترياق إبراهيم السائق، ورقية وصفتها زوجته نازلية ابنة خالة هلال لزوجها إبراهيم سائق سيارة الأجرة بين أربيل، والموصل ، لكي لا يأتيه النعاس، وهو يمرّ بقرى العشائر السبع التي تعترض الطريق العام، وكأنها عالم آخر - سقطت فجأة كنيزك - بكل تفاصيلها : نساؤها وصبيانها وحتى هندسة البيوت فيها . فيرى إبراهيم بيوت قرى العشائر السبع البيضاء، وقد اخترقتها نوافذ وأبواب الخضراء كأنها تصل بين هذه القرى، وبين الآخرة سراط يشّع بينوعة الخضرة . فيخاف إبراهيم من الارتفاع إليها لكي لا تزل يده عن المقود، وتقوده للدخول في الأبواب التي تنفتح مصاريعها بلولبية غريبة، ولا يجد إبراهيم نفسه إلا في الآخرة، وهي المحطة الأخيرة له، التي تعني الموت والفناء الذي لم يجربه، ولكنهم حكوا له عنه كثيراً . لهذا كان على إبراهيم أن يتذكر أخذ ترياق نازلية زوجته في اللحظة المناسبة . خصوصاً في آخر صعود للسيارة بعد منحدر الدبلماجة بأكثر من ثلاثين كيلومترا . لكي لا تسحره الأبواب على حين غرّة، وتسرقه إغفاءة ليخرج من هذا العالم، إلى عالم مخترق للطريق العامة، لا يعرف إلى أين يقوده، حيث يتوحد هو على مقوده، والأبواب بسمائها، فلا يرى أمامه غير سماء زرقاء ونهايات الأبواب العليا، كأنها تناديه للدخول مثل فتيات سوق النخاسة في محلة الدوّاسة القديمة، في أربعينيات القرن العشرين، وهن يمططن للزائر شفاههن كأنهن شافطات . أو حجامات تسحب كل ما يدخل في دائرته .

وتهب ريح كأنها تدفع إبراهيم بكل وزن السيارة ومن فيها من ركّاب باتجاه الأبواب . وكثيراً ما تأكد لإبراهيم بأن الرياح ليست آتية من الخلف لتدفعه باتجاه الأبواب، ولكنها ريح ساحبة مصدرها فتحات الأبواب كأنها فوهات مكانس كهربائية كبيرة بحجم الأفق الذي أمامه . ومما يزيد الشحنة قوة أن إبراهيم يستجيب لهسيس أناس ينادوه بحنان، وتودد فيفقد اتصاله

بالواقع الذي يحيطه، ليس كسركيس بطل رواية عالم فوهان، وإنما بشكل مقارب جداً، خصوصاً وأن المنطقتين الموصوفتين قريبتان من بعضهما جغرافيًا .

ويبقى إبراهيم معلقاً هكذا حتى يعود لوعيه مرّة أخرى . فيكون قد وصل بالسيارة، والركّاب لمفترق طريق بلدة الحمدانية، وجبل مقلوب. عندها يسأله فجأة أحد الركاب عن سرعة وصولهم لهذا المفرّق . في حين أن السيارة بدت وكأنها واقفة في مكان ما .. وما هي إلا جزء من الثانية الخاطفة، حتى وجد الركّاب أنفسهم هنا .. وكأن يدًا سحرية، جبّارة قد أسقطتهم فجأة هنا . ولم يجرؤ إبراهيم على البوح عما يعتمل فيه وقتها، خوفًا من تفسير يجلب له السخرية . لكن نازلية عرفت بنباهة المتطفلين على أحلام الآخرين أن شيئاً ما يعتمل في أحلام زوجها، وعليها أن تستدرجه للاعتراف، وكأنها كاهنه الوحيد في العالم، فخافت في البداية على نفسها، ولكنها قررت أن تتوسط بمن يقودها لحلّ، وجربت كثيرا من الرُقى دون علم زوجها، فلم يستجب لها إبراهيم، لا في العلن، ولا في الخفاء .. حتى اهتدت بنفسها لهذه الوصفة التي لا تعرف أي هاتف سرّها لها في المنام . ونازلي صارت تصفها للآخرين عندما تأكدت من مفعولها لدى زوجها . أو هكذا ادّعت .

ويأتي هلال هاتف داخلي يحدّثه عن سرّ الشجرة متنوّعة الفواكه، هذه الشجرة التي سرقه التداعي منها، إلى قصة إبراهيم السائق، ونازلية زوجته. ويفكر هلال بأن شجرة من هذا النوع لا وجود لها، إلا في قصص الخيال . أو من خلال خبرة أوسيب زوج ابنة العم الحريف في تركيب أشجار الفواكه، غير أنه يحتاج لعدة سنين، ولأنواع نادرة على إبراهيم أن يطير بسيارته عبر تلك البوابات لكي يجلب أغصانها في نهاية فصل الشتاء. لهذا عدلت نازلية عن الفكرة لأنه من يضمن لها أن يعود إبراهيم بعد دخوله الأبواب ليجلب لها تلك الأغصان . عليها إذن أن ترضى بما يحصل لها مع زوجها. وعلى إبراهيم أن يعتاد تحاشي التوغل، والتمادي في الانسراق الغيبي مع الأبواب ..

وكم اقترحت نازلية على زوجها أن يأخذها معه لكي تتوقف معه في قرى العشائر السبع لعلها تجد الدواء هناك منطلقة من مقولة وداونى بالتى كانت هي الداء، وفي نيتها أن تجد من يسرق منها فحولة زوجها الذي يأتيها منهكا دائماً لا تجد لديه استجابة مقبولة كلما راودته .

ورغم أن الناس يخافون الشائعات، والركاب يتحاشون الوقوف في هذه القرى التي لا تُرى على الخريطة . لأن أغلبهم لا يتذكر أنه مرّ بها أبداً . فهم لا يرونها من بعيد، لأنها تظهر وتختفي في لحظات قد تبدو سنوات من الحلم . حينذاك يحظى الركاب ولمرة واحدة، برؤية باعة الفواكه الغريبة أمام تلك الأبواب الأسطورية، كلحظة حلم سرعان ما يختفون كومضة حلم تالية . وإذا ما تصادف أن اشترى أحدهم من هذه الفواكه، فإذا لم يلتهمها للتو، تلاشت في لحظات، خصوصاً لو كانت سيارة إبراهيم مستمرة في السير . ولا يعرف الركاب هل توقف إبراهيم فعلاً . أم أن الباعة اخترقوا على الركاب خلوة جلوسهم، لعله واقع معقد كفعل الأحلام .

ويخاف هلال فجأة وهو يلتهم الفواكه المنوّعة، أن يدخل الآن واحدة من بوابات إبراهيم . أو يخترق عليه أحد الباعة السحريين خلوته . ربما تكون كلها قصة مختلقة يرغّب إبراهيم ركّابه فيها، لكي يسحبهم من منافسه الوحيد قاسم الرحماني، فاضطر الأخير لتبديل خطه على الحدود الغربية للبلدة . أو من لا يريد الذهاب إلى أربيل في غير مواسم اللبن، والقشدة المشهورين . ومع هذا لم يتوان هلال في استلقائه تحت الشجرة السحرية عن استغلال الفرصة لالتهام أكبر كمية، وأحسن نوعية تسقط أمامه.

وفجأة ينتبه هلال إلى أن الصوت الذي تابعه في وصف الشجرة قد اختفى، وليس أمامه أحد : لا كاميرات، ولا مخرج . فيفزع برعشة حمى باردة، عندما تساقط رذاذ الصيف وراء حبة فاكهة كبيرة سقطت بحركة بطيئة كما تصور في الأفلام . تبعها ماء كأنه خرير من أنبوب... أما الفاكهة فإن الداعي "المؤلف" فقد تحول لشخص آخر في داخل هلال، كأنه يصف لنفسه بنفسه .. يصف له هذا الآخر مراحل نضوج الفواكه، وحالة انفصالها

عن مكانها ... وتسقط بقوة على الأرض لكي تنفجر . أو تنفتح وعلى المرء أن يأكلها طازجة في الحال ، وإلا تفسخت على عجل بأكثر مما يتصوره المرء . لهذا كان هلال يأكل من كلها، وبأطعامها المختلفة، وعلى الرغم من أنها مختلفة الطعم، والنوع إلا أن شكلها العام موّحد لكلها كأنها عصير محمول في كأس كوكتيل - COCTAIL على كف نادلة فلبينية تعرف كيف تبتسم للجميع بنفس المشاعر، والتحبب .

ويحس هلال مجدداً بأنه قد فقد الاتصال مع نوّار دليله السياحي هنا في بلد التداعيات هذا، وما عليه سوى اللحاق به، خاصة وأن ليليان كانت تشير إلى أن عليهم أن يقضوا الليلة هنا ما داموا قد جاءوا من بلد آخر، فكيف لا يقيمون لليلة على الأقل . وكأن هلال يسمع إعلانها قرار البقاء، ويسمع موافقته هو قبل نطقها . ولكنه يبحث الآن عنهما "هي ونوّار" معًا فأين ذهبا وتركاه يا ترى ؟ وما يضيرهما استغراقه في هوسه الطفولي ؟ أليس هذا اللعب تحت الأشجار، لونا من ألوان التمثيل ؟ وهلال يتوق إلى خوض ما لا يحدث في الواقع أبداً، يوّد دائمًا الانسراق في لحظات سراب عابر .

وعلى هلال إذن الإسراع للانتهاء من هذه الشوارع المتربة لعله يجد ما يقله للوصول للكورنيش، فهناك يلتقي الكل .. وكأنهم على موعد، يلتقي من فقد أصحابه، وأحبابه، وحتى بلده، يأتون كلهم هنا في هذه الفسحة المكانية . آه ربما تكون هذه نفس الفسحة التي يمرّ بها إبراهيم السائق زوج نازلية . ولكن الأمر مختلف هنا، فالواحد يلتقي في فسحة زمنية من الواقع خارج الوعي على جسر النوافل فوق النهر العريض، يمكن تشبيه هذا الحال، بوضع ركاب سيارة إبراهيم فقط عندما يداهمهم باعة الفاكهة للحظات وجيزة

لكن متعة مشاهدة الشوارع الترابية الضيقة الجميلة بكل تفاصيلها، أجمل بناسها الذين يبدو وكأنهم خرجوا من التأريخ، لا يهتمون بما حولهم رائحين غادين، يشترون، ويبتاعون . ويتسامرون، وهلال يسير بمحاذاة أمكنتهم، كأنه في مركبة سريعة التحرّك تتخطف صورهم أمامه وعلى جانبيه كأنما يتحاشون الاصطدام به، ولكنهم لا يرونه كما يبدو، ربما يحسون بوجوده

فقط، لهذا يتحاشونه ، وكأنه كتلة معترضة . أو حجر عثرة وقف في طريقهم .

وفي عجالته وهو مسرع للحاق بليليان ونوّار يفترض هلال أنهما ينتظرانه في نهاية الشارع على الأقل . فيرى وكأنه يشاهد فيلماً سينمائياً .. فالكورنيش الذي بدا أقرب مما تصوره يتلألأ بالمصابيح وتنعكس ظلالها لتسبح في النهر، تتمازج ببريقها مع ظلال مفرقعات، لم يدرك هلال أنه أحد النيلين في أعاليه إلا متأخراً، لم يتعب هلال نفسه في معرفة فيما يكون هو النيل الأبيض . أم الأزرق فكل شيء في الأحلام بلا ألوان ... إلا الألوان التي تقترحها مخيلة المنام . لكن جسر النوافل الذي خطر بباله تسميته هكذا من غير مقدمات يقوم على يمينه. وهو قريب بعيد أبداً . كأنه شيء لا يمكن الوصول إليه إلا بالعبور من بوابات إبراهيم في قرى العشائر السبع . فيرتجف هلال من رعشة تعتريه هذا اليوم للمرّة الثانية . ولكنه وجد حلاً جاهزاً، يبدو هو ما تعارف عليه أهل هذه البلاد، فعليه النزول مع الجموع منقاداً بحركتهم المتجهة نحو نفق .. أو حفرة تبدأ بالنزول بدرج ليس كنفق الشندقة بدبي من برّها إلى ديرة، ولا بنفق وندزور / ديترويت الفاصل بين كندا، والولايات المتحدة، لكن كلاهما يشتركان، وهذا النفق بعنصر هام هو مجال الاقتران والتواصل، ها هو هلال يرى الطرف الثاني قبل عبوره إليه، وهو ليس أكثر من منحدر يشبه ما يمكن تصوره درج أثري .. وبعد الهبوط، ومن ثم الخروج من الجهة الثانية . أي أن الحالة لا تتجاوز الوقوف ما بين حواجز الطريق العامة، وحافة الماء، ومن فوق مرتفعات رملية متصخّرة .. أو متكلسة يشاهد هلال من بين الأجساد المحتشدة حوله رقصة أفريقية حماسية لنساء غاية في الرشاقة والجمال . مرمر من الأبنوس والكاكاو . ووسمة الحناء . توحي له الرقصة من بعيد بأن مجموعة طيور إلاهية قد نزلت لتوها من سمائها لتستقر على عجل فوق حافة النهر، ولتتزوّد بزاد يساعدها على مواصلة رحلتها الفردوسية، وهي فرصة نادرة للجموع التي احتشدت هنا، وكأنها تعرف مواقيت هذه الطيور السنوية، ولا يشغل الفرقة

الراقصة كل هذا الحشد، وإنما ما يشغلها هو الشخوص باتجاه واحد لمعبود لا يراه أحد .. لهذا فإن الرقصة تسير في منحنيات غير مملة، وإنما لها لكل لحظة فتراتها المضيئة، وإشعاعها الباهر .

وفي هذا الزحام ينزعج هلال من ضيق مكانه، ويحس هلال لأول مرّة بأنه يرتقي حافة صخرة رملية ينزلق في كل مرّة عنها كأنه سيزيف تنزلق من غير أثقالها عن منحدرها الكابوسي، فتضيع بانزلاقه الرقصة، وكأنها تغطس في واد من المياه، ولا يبقى أمامه غير رؤوس سوداء . وعمائم بيضاء أكبر مما يحمله رأس فتتكاتف كأنها قطعة واحدة من الزَبَد يشعر هلال كأنه يذوب بين الحجيج من غير موسم حج . أو مكان يحج فيه المتعبدون . فيحاول التمرّد، ويزجر من هو أمامه . لكن وجهاً ملائكياً لمجدلية أفريقية يستدير بوداعة إليه، وعيون الوجه مثل سماء صافية .. فيبدو الوجه صغيرا لا يتسع للعينين فيغرم لحظتها، لكن الرعشة تنتابه مجدداً حينما يتخيّل بأن هذه العيون مثل أبواب إبراهيم السائق تسحره وتشده إليها . فيتوقّف على مشارف خطوة لفرصة واتته، لكن اللحظة تنفذ بسرعة لحسن حظه .. أو ربما لسوئه، لأن عليه أن يترك كل شيء ويبحث عن نوّار وليليان، فاليوم هنا لا هو بنهار، ولا بليل .. وعلى هلال إن أراد البقاء أن يجد مكاناً يلوذ به . ومفتاح المكان، والبقاء، والراحة، والاستقرار هو أن يجد نوّار بأي ثمن ..

ويتحسّر هلال لأن كل هذه الفرجة ستفوته ... ويحسد من حوله ممن سيبقون . ويقول له هاجسه بأنهم لا يهتمون، فمتى انتهوا سلكوا الدروب إلى بيوتهم وهم مغمضو العيون، ليس مثل هلال الآن، فأين له من مكان . أو أحد . أو حتى معارف، غريب كأنه مقطوع من الدنيا .. لهذا عليه الإسراع للخروج إلى الشارع من جديد، وهذا الهاجس جعله يتحسس جواز السفر في جيبه، لأول مرّة، غير أنها تبدو حركة مارسها للمرة الألف بعد الألاف .

وكأن هلال يتابع حلما تنبأ فيه بما سيجري لهما، هو وليليان كما حدث لهما في أول ليلة قضياها في روما، فبعد الاستقرار في فندق بوابة

ماغريوس، سألا موظف الاستقبال عن أقرب مطعم فدلهما على اسم "أوتموتو" للبيتزا بالطبع، فخرجا في البداية بنفس الاتجاه، لكنهما عند أول مفترق طرق اختلفا، وذهبا حسب العادة ليس عكس التيار فحسب، وإنما تفرّعت بهما الشوارع، وكأنهما يتيهان بين فروع شجرة حياة عائلية، ففي أولى ساعاتهما بالعاصمة الرومانية لم يعتادا الاتجاهات . فقد كانا يمنّيان نفسيهما بوجبة ساخنة، لكنهما الآن يتمنيان الوصول إلى أي مكان حتى ولو كان الفندق نفسه . ومرّة ثانية يقنعان نفسيهما بأنهما لا يخسران شيئاً لأن كل الأمكنة جديدة عليهما، فلم الخوف والاستعجال ؟

وها هو هلال هنا يبحث عن نوّار، وليليان ويعرف أنهما في مكان ما بنفس شارع الكورنيش بالطبع، ذلك الشارع المدعو بشارع العودة، فإذا ما أراد هلال الارتفاع إليه من ساحل النهر، عليه الآن أن يعود لاجتياز ذلك الممر . أو الهوة . أو الحفرة التي تبدو أضيق بكثير من قبل، رغم أنه دخلها مع حشود كثيرة .. أما الآن فإنها لا تتسع له، ولطفلة تزاحمه في الخروج، وكأنها جدّة شاخت عليها الأيام، تتكلم بلسان الخبيرات، وتتصرف كأن عمرها ألف عام، تحاول مراودة أي ممن تلتقيه عابراً للنفق، كسباً للعيش .. لكنها ما تزال تلبس فستان الصغيرات وبلون وردي يفضلنه الصغيرات دائماً خصوصاً عندما يلفظن اسمه بكلمة PINK .. ومع هذا فالطفلة تلح بمزاحمته، بحنكة، وعقل، وجسارة حكيمة فهي طفلة شقراء ولكن السنين قد عجنتها فتجعدت بشرة وجهها . وبمرورهما معاً تنفجر الطفلة عندما يسألها هلال :

هلال : هل أنت ذاهبة إلى البيت ؟ وهل أنت سودانية .

الطفلة : كلا أنا كوستاريكية ... أااه أقصد عدنا من كوستاريكا بعد حصولنا على جواز السفر، وقد وجدت نفسي هناك لأن أبي هاجر من الوطن، وماتت أمي بين ممرات الحدود التي لا يتذكر أبي عددها، وأمكنتها فحملني في لفافة، وكبرت في الغربة .. ولي إخوان من تشيلي، والهند، وماليزيا، وأوغندا، وهنا في السودان جئنا كآخر ملاذ لنا .. ولكن المشكلة أن

أبي قد أدمن التجوال، ولا يرى لوضعه قـرار .. ولا بيت يـأوي إليـه .. ولا زوجـة يبقـى معـها بعـد أمـي . وأنـا لا أعـرف إخوانـي كلـهم حتـى هنـا فـي السودان .. ففي كل بلد مرّ أبي أنبت له غصناً من بلدنا، لربما تتفرع رؤوساً توحدنا في المستقبل ..

هلال : وهل ترينه في المساء ؟

الطفلـة : أقـول لـك والـدي مدمــن الآن .. مدمـن علــى كـل الأشــياء . السيجارة، الكأس، الرحيل .. ولا أحد يعيده لوعيه إلا عودة أمــي .. وعودتـه للوطن .. وكلاهما مستحيل .. فأمي قد ماتت، والوطن قد ضـاع.. وأنــت هـل أنت مهاجر مثلنا ..؟ أقصد هل هاجرت قبلنـا ..؟ فأنـا أميّز المـهاجرين مـن سحنتهم، ومن علامات التيه في أعينهم .. ؟

وينتبه هلال لكلامـها، ويريـد أن يجيبـها لعلـها تأويـه هـذه الليلـة، ولكنـها تختفي فجأة كأنها ساحرة ذابت بين الجموع، فلماذا تذكر السودان، وهو بكـل كيانه في كوستاريكا ؟ أهي ممثلة معـه فـي برنـامج الاغـتراب التلفزيونـي - حلقة السودان ؟ أم أن ما يراه تهيؤات لها علاقة بـالواقع ؟ ومـع هـذا يجيبـها لعلها تسمعه، وهي متوارية عنه :

هلال : أنا زائر مؤقت ..

فيأتيه صوتها من جديد، ولكن من حيث لا يدري :

الطفلة : وهل تعود إلى بلدك بين فترة وأخرى ؟

فيصفر وجه هلال، ولا يستطيع الجواب فقد وضعته الطفلة العجوز أمـام محنة يعاني منها في أحلامه كل ليلة، فبمجـرد أن تطـأ قدمـاه الحالمـة أرض الوطن .. يقاسي هلال من مجهود البحث عـن دوائـر الشـرطة لاسـتحصاله على جواز سفر بديل لجواز سفره الذي يُفقد في كل مرّة، وليس مـن معـرّف يؤكد مواطنته . وبعد معاناة، ومجريات مأزومة يفيق فزعاً من كابوسـه قبـل صدور الحكم عليه .

وفي كلّ مرّة يسحب هلال التفكير بالعودة يؤرقـه سؤال دائم : لمـاذا يـا ترى يريد الخروج ما دامت العودة ملاذه الأخير ؟ أهو ممن أدمنـوا الرحيـل

الدائم، مثل والد الطفلة ؟ وهل يمكن أن يتحقق له أن يعبر فجـأة إلـى الوطـن من غير الدروب الرسمية، كأن يدخله من خلال بوابات قرى العشائر السـبع مثلاً ؟ لكي تنتهي كوابيسه في العودة الحلمية علـى الأقـل، وتـتراءى لـهلال فجأة بوابات إبراهيم الساحرة وقد بـدت الآن كبوابـات الوطـن تطلبـه، ولكنـه يخاف الولوج فيها من جديد، لأنـه لا يضمـن طريـق الخـروج بعد العـودة . ويتذكر هلال بأنه نسي أن يسأل الصغيرة عن اسمها فيأتيه هـاجس قـوي بصوتها :

الطفلة العجوز : أنا غصن البان، وألقب بعشتار العصر .

وعندما يحاول أخـذ رأيـها بمسـألة انتـهت، والشـريط الذكريـات قـد نفـد، فيبقى معلقاً بين النفق والجسر، كما تعلقت روح تموز، وقـد عجـزت عشـتار الأسطورة عن إخراجه من العالم السفلي .

إيلونا إيسلن

تعرج ماريا إيلونا في تيه بشوارع مدينة بودابست هرباً من كثرة ما سمعت من البيت القائل :

إيلونا ربة البيت، تصب الخل في الزيت[1].

بيت الشعر الذي حرّفه، ويردده شريكها، ورفيق سريرها، جبرائيل منصور فقد صار هذا البيت الشعري مثل كابوس تطرق مفرداته على جمجمة ماريا، وكأنها مطارق حداد مبتدئ لا تركز في موقع واحد على السندان، فتأتي الطرقات بأصوات خاوية، ولكنها مزمجرة كالرعد غير مصحوب بمطر .

ورغم عدم فهم إيلونا، لا لمعنى البيت ولا لموقعه في الشعر العربي، ولا موقعه في القصيدة، والحادثة، وأيضا لعدم فهمها لبلاغة مفردات اللغة العربية بأي شكل من الأشكال، فقد جعل كل ذلك ماريا تحمل آلام آفة العرج على نفسها لتهرب كل يوم متجولة في شوارع، وأزقة بودابست قبل أن تعود إلى البيت الذي احتله معها الشريك منذ سنتين، فيما عدا يومي عطلة نهاية الأسبوع اللذين تستغلهما في رسم جبرائيل، بشرط أن يكون صامتاً طوال الوقت .

ورغم أن إيلونا تقضي ثماني ساعات في العمل كممرضة في مستشفى منطقة فيريهاج التي تستقر فيه ببيتها، لكنها تفضل قضاء أكثر من ساعتين إضافيتين ونيّف خارج البيت بحجة الذهاب للتسوق .

وكم حسدت إيلونا زميلاتها اللواتي لم يصدقن الخروج في الخامسة عصراً لكي يحشرن أنفسهن في بيوتهن مهما صغرت، لإراحة أقدامهن من الوقوف، بل إن بعضهن يهربن قبل الموعد بنصف ساعة، أو أكثر، ولا

---

[1] وهو تحريف للبيت الشعري القائل : ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت، ابتكره بطل القصة جبرائيل للتغزل بمحبوبته ماريا على طريقته .

يبالين بإغراءات الخروج إلى ناد، أو مطعم، لأن كل تلك الأمور تؤجل لمناسبة خاصة، أو إلى عطلة نهاية الأسبوع .

أما إيلونا العرجاء فإنها ما أن تخرج من المستشفى حتى تفتح كيس التسوّق الشمعي، وتتجه إلى سوق لهال "LEHAL BAZAR" للخضار في منطقة لاهالتيير بدلاً من منطقة الدياكتيير القريبة من بيتها في شارع كاترينا قرب محطة مترو أستوريا، وهي تفكرّ في المواد الغذائية، وتحمل له المسواق اليومي لتغذيه كثور استرالي للتهجين تعرف كيف تقويه، وتنتقي له المطيبات، ففي كل يوم تذهب إلى السوق تفكر بالمواد الغذائية الغنية بالبروتينات، والفيتامينات، لتعد مثلا حساء السمك . أو سلطة الفواكه، أو أكلة الكلاج التي يعرفها العالم كله عن "المجر" ولا تسمع منه وهو يلتهم غذاءه، وقد برك على الطاولة كالثور إلا كلمات :

جبرائيل : شكراً ، طيب، لذيذ، لذيذ يا إيلونا ... إيلونا ربة البيت تعجن الطحين بالزيت ..

لا تفهمها إيلونا رغم تكرارها يوميا، جوابا على جملة "يوات فاجوت" .. شهية طيبة بالهنغارية، فتخرج تلك الكلمات من فمه مع ضجيج اصطكاك الملعقة بالأسنان، والحساء المشفوط بالشفاه، وسرعة الأنفاس المنطلقة من أسفل معدته ببطن كالبطيخة، دلالة على شبع، لنعمة حديثة قد حلت على صاحبها، بعد جوع من قحط .. وعندما ينتهي جبرائيل يبرك على الأرض من جديد ليجتر الطعام، والكلام، وهو يقوم بتنظيف أسنانه بالخيط كما أوصوه، ولكن بطريقة مقززة تنفر حتى الجرذان منه ..

كل هذا العناء تتحمله إيلونا بمحبة، ولا تتحمل تكرار جملة لا تفهمها، صارت كالطنين المزعج في ذاكرتها، حتى ولو تحاملت على نفسها لتضيفها إلى مشكلة جهل ثورها للغة بلادها، لذلك تتعمّد ماريا العرجاء الخروج من الدار فجراً قبل الفطور وهي تتضوّر من الجوع .

وينمو الجوع في داخل إيلونا كدافع غريزي، رغم أنها أعدت للثور فطوره، وحرصت على عدم إيقاظه، فشخيره أرحم من جملة : ماريا

والزيت والخل، فكل همها أن ترضي الذكر الذي أحبته دون لغة تتفاهم معه..

أما إيلونا العرجاء بالنسبة للثور فهي المرأة الثانية في حياته بعد الزوجة التي أورثته ابنهما المعاق . هذه العلة التي ساعدت الثور على الهروب بحجة إعاقة ابنه عبر الحدود لينجو من الطاغية الذي يلاحق الأبرياء، ويصطادهم من خلال عيونه في كل حارة، وزقاق .

ولقصة الهروب دباجاتها التي رتبها الثور بعنوان تحمل اسم ابنه جهاد، ويبدأها بالقول: سوف أروي لكم عملية جهاد رقم كذا ؟ ويستغرب المنصت من عنوان الرواية، أو لمن يجالس الثور للمرّة الأولى، إذ يبدو أن الثور قد أرشف في مخيلته كل رواية للحوادث التي مرّ بها تحت تسمية، وعنوان، ورقم . مثل عملية الجهاد مع اليو إن (UN) . وعملية الجهاد مع مدرسي الثانوية وهران، وهكذا .

أما عملية جهاد ابنه نفسه فتبدأ من الحكاية التي ألفها، وجعل يرويها على نفسه مئات المرّات قبل أن يجتاز الحدود لكي يقنع بها شرطة الحدود إذا ما تعرّض لاستجواب، لكن الأمور مرّت بسلام . غير أن الحكاية دارت معه، وتعمقت بتطورها التدريجي في ذاكرته بقناعة تامة . وتبدأ الحكاية مع بدء تفكيره بالهرب من الوطن ولم يكن لدى جبرائيل وقتها حجة للسفر خارج الوطن، فانتبه لعلة ابنه، ولما كان معاقاً، وليس من دار للمعاقين تستقبل من بحالة ابنه، لعدم إتقانه أي شيء بما فيها ذهابه إلى بيت الأدب، فإن أي ملجأ لم يقبله، ورفضت قضيته في كل الملاجئ، وكافة الدوائر المعنية بالمعاقين، ولم تصادق على التماسات والده. فكان على جبرائيل أن يجد مخرجاً لسفره، خصوصاً لو تعهد بالصرف على ابنه من جيبه الخاص . وهكذا بدأ المشوار بتصديق الشهادات، وجمع الوثائق الثبوتية لتقديمها لدائرة السفر، والجنسية والهجرة .

وما أن وصل جبرائيل وابنه أنقرة واستقر لبعض الوقت حتى اكتشف أنه ضائع، وعليه إن أراد البقاء لفترة طويلة في الغربة التي اختارها، أن يجد

عملاً، فعرف أن الجزائر بحاجة إلى مدرسين، وبمراجعته للسفارة الجزائرية في أنقرة عرف أن ما فعله من مغامرات للخروج مع ابنه لم يكن له داعي لأن وزارة التربية الجزائرية تتعاقد مع المدرسين وهم في بلادهم، ولم يكن بحاجة إلى كل هذا الجهد في البحث، والسفر، واختلاق حجة مرض ابنه لكي يسافر، وعاد جبرائيل من جديد لكي يتوسط، ويبرر سبب وجوده في أنقرة حتى عطفت اللجنة عليه، وقبلته بشكل استثنائي نظراً لظروف ابنه، وبهذا حصل على عقد عمل، نقله إلى الجزائر .

إن إيلونا لا تعرف لمصيرها مع ثورها قراراً، فهذا المغترب غير مستقر الرأي، والوضع، لذلك يرفض حتى تعلم لغة بلدها، وقومها، بحجة أن هذا البلد ليس إلا محطة مؤقتة، لهذا يحمل كل أوراقه الثبوتية في جيوب مخاطة داخل ملابسه. ومع هذا فإن ثور إيلونا جامد الرأس، همه فقط شراء حاجيات لا لزوم لها من سوق "البولون"، للبضائع المهرّبة والمستعملة، لا لشيء إلا لكي يشعر بأنه يؤدي عملا ما كالتسوّق للبيت، كما كان يفعل في داره أيام راحة البال والعمل المتواصل في الوطن، قبل رحلة الاغتراب ..

وتلعن إيلونا العرجاء أحد أيام عطلة الأسبوع الذي أخذته فيه إلى ذلك السوق لتعرّفه عليه، لأنها ضجرت من عدم تحرّكه من البيت، فثورها يخاف من التورط في دخول الأزقة لأنه يخاف أن يتيه، فيصادف شبان البنغس "PANCKES"، ليسرقوا أوراقه الثبوتية، كما فعلوا بجليل، عندما عمدوا إلى تخديره بمادة راشة، فلما لم يجدوا ما لديه، سلبوا أوراقه، ومزقوها عندما أكتشفوا أنها لدولة مكروه رئيسها لحكامهم، وقد نجا جليل بأعجوبة، ولكن ما يزال يعاني من تأثير المادة المخدرة . إن جبرائيل لا يهمه أن يموت، ولكن ما يعانيه، أن يموت بلا اسم، ولا شاهد، فهؤلاء اللصوص سوف يمزقون كل أوراقه، ويرموها، وعندها سوف يوضع في ثلاجة المستشفى، ولا أحد يتعرف عليه، وبعدها ربما تقطع أوصاله، وتباع، أو يدفن في مقبرة المفقودين . لهذا كان يحار في فصل أوراقه الثبوتية عن بعضها، ويعتني بإخفائها بين طيات الثياب، أما اسمه ولقبه، وجنسيته فعليه في كل مرة أن

يبتكر لنفسه مكانا يبرز الاسم فيه، فمرة في أيقونة يعلقها في رقبته، ومرة في حزام بنطلونه، ومرة أخرى في جواربه، ولكنه في كل مرة يكتشف أن هذه الأمكنة كلها سوف تنفصل عنه لو جرده اللصوص منها، وعليه إذن ابتكار مكان داخل جسده، وجلده، وفكرّ في أن يضعها تحت السن الاصطناعي، ولكن وجود أي قطعة في الفم مهما صغر حجمها، يحيل حياته إلى جحيم، لأنها تبدو بكبر الجبال، علاوة على العذاب في نزعها كل مرة يشرب فيها الماء، أو يأكل لكي لا تبتل، لهذا غلفها بقطعة نايلون، مما زاد عذابه من جديد . وأهم ما توصل إليه في النهاية أن يعمد إلى زرع الاسم تحت الجلد، ولكنه تمنى أن يمررها في شريانه لكي تستقر في البطين الأيمن، ولا يدري لماذا الأيمن بالذات من قلبه، ومع هذا كان يتراجع في اللحظة الأخيرة، عندما يجابهه سؤال هام، وهو : كيف سيجد المحققون اسمه لو عمد إلى إخفائه تحت الجلد، أو في الدم .. ؟ وما عليه الآن سوى التفكير بنقش الاسم، والجنسية كوشم على جلده، مهما تحمّل من عذاب، وتقزز من المنظر . وفكر أكثر سشيء في أن الرسامين في ساحة فريشمارتي، ربما يعرفون أحد المهرة في فن النقش على الجلد . إذا لم يتقنوها هم أنفسهم، وهكذا مارس جبرائيل هواية التفرّج على الرسامين من غير أن يجرؤ على محاورة أحدهم، لعجزه عن استخدام مفردات اللغة المجرية، وخجله من استخدام أية لغة أخرى .. كذلك استحى من التوسط بأي من أصدقائه للمساعدة في الترجمة خشية إعطائهم فكرة مخالفة بكونه سينحدر إلى البوهمية، وهو منها، ومن أصحابها براء . ولكن بعضاً من هواجس جبرائيل هذه تلاشت بعدما تعرّف على إيلونا واستقر في بيتها .

ويقوم جبرائيل الذي نسيّ حتى كنيته مع إيلونا بعد أن أطلقت عليه ماريا كنية ثور بالمجرية ".. .. .. .." ليصف لها كيف دخل السوق، وسلم على أصدقائه واصفاً إياهم الواحد تلو الآخر، وماذا كان يفعل وقتها، ومَن كان يتعامل مع مَن، وعلى أية بضاعة كانوا يفاصلون، وإيلونا لا تفهم من كل

عباراته غير أسماء الأشخاص، ووسائل الإيضاح التي هي ما اشتراه من كل هذه الأسماء أو بعضها فيقول :

جبرائيل : اليوم اشتريت هذه القمصلة الجلدية من نوع الشموا التركي وهذا الفراء الروسي، تلبسه السيدات الأرستقراطيات .. وسوف تلبسينه عندما نغادر إلى أمريكا حيث بيت خالي عوديش ..

ولكنه لا يستطيع إكمال الفقرة، لعدم صدقه،فكل رسائل خاله تحثه على تسهيل هجرته بشرط أن يتزوج واحدة من بناته العانسات . فماذا يفعل بإيلونا الحبيبة إذن بعد أن صارت قطعة من فؤاده . الأفضل أن يذهب بإيلونته إلى السويد، أو أية دولة إسكندنافية فيها برد لكي ترتدي هذا الفرو الذي اشتراه لها فقط . جبرائيل : وهذا المصباح نحتاجه في سفراتنا إلى الريف، وفي الليل نضع الفانوس في الخيمة لكي نسهر ثم ننام . وهذه الكواة سفرية هي الأخرى لا تحتاج لأكثر من جمرة نار لكي تكون فاعلة .وهذه الحقيبة النسائية إنها رخيصة جداً، هي لك،، لا لا، إنك لا تخرجين في سهرات .وهذه عربة أطفال سوف نستخدمها عندما يولد طفلنا .وهذا محقان لو استعصى على الطفل الخروج .وهذه كاميرا سوف نصوره فيها .وهذا .. وهذه .. وتلك .. و، و .. ، .. وو ..

حتى تقع إيلونا في دوّامة من كثرة حركة رقبتها، وعينيها، وإلحاح جبرائيل في اجتذاب انتباهها، حتى لو اضطر للفت نظرها بتحريك رأسها بيده . لهذا كله قررت إيلونا منذ اليوم ألا تعود إلى البيت باكراً مهما كلفها الأمر، ولكنها لا تعرف أين تقضي وقتها بعد دوامها الطويل، وتصمت، لكن عقلها يعمل على أن يتوفر لديها مكان في كل يوم . أما الحجج فلا شأن لها بما ستخلقه لثورها ما دامت ستأتي مباشرة إلى المطبخ لتعد له الطعام، ويتعللان في أمسيتهما . ثم ينامان . ولم تكن إيلونا حتى الرابعة والنصف عصراً من اليوم التالي تعرف ما المخطط الذي ستسير عليه، ولكنها كانت مشوشة البال، هل ستعود لتسمع ذات السيناريو من ثورها مجدداً ؟

وفي الخامسة عندما حيّت زميلاتها بكلمة : فيزونلاتاشرا وقادتها أقدامها لكي تتسوق، لم تدر في طريق عودتها إيلونا، وهي قريبة من البيت، كيف ركبت عربة حافلة الفيلاموش الأصفر رقم 14 الذي تنتهي محطته، وتبتدء عند محطة ساحة الدياكتير القريبة من بيتها، ورغم أنها كانت منهكة وهي تصعد سلالم المترو الذي أقلها من لهلال تيير، حتى دياكتيير عائدة إلى البيت، لكنها ما أن وضعت عجيزتها على الكرسي الخشبي في الفيلاموش، وكيسها المشمع المثقل بالخضار، واللحوم والصمون الهنغاري حتى أحست براحة كبيرة، فملصت كعبي حذائها عن قدميها لكي تتنفسان بعد ما مددتهما . وسرعان ما سرحت في خيالاتها، حتى انتبهت أن كل الركاب قد نزلوا في محطة الموسكوفاتيير الوسطية في جانب بودا، ولم تعرف فيما سرحت، وكيف مضى الوقت، وهل ستكون هذه نهاية المطاف لتعود مبكراً إلى البيت، ولم يمض على ركوبها الحافلة أكثر من عشرين دقيقة، لا ليس لها طاقة بعد هذا التعب أن تعود لترى ثورها بكامل نشاطه، وقد كوم البضائع أمامه، لكي يصنفها أمامها، ويرفعها فوق الخزائن، او يكومها في كراتين بزاوية الغرفة الكبيرة التي يستخدمانها لاستقبال الضيوف، والنوم، والأكل .

هاهي قدما إيلونا تقوداها إلى حافلة فيلاموش رقم 56 الأصفر المتجهة إلى ضواحي بودا البعيدة، وفكرت وهي ترتقي درج الحافلة لو أنها تصعد منحدر قلعة بودابست الشهيرة، لكن ماذا تفعل في القلعة هذا الوقت، وهي تحمل كيسها الثقيل إن الفار، "الفاء بثلاث نقاط"، وليس كما يلفظها ثورها بالفاء . لا يمكن المجيء إليها إلا أيام عطل الأسبوع للتفرج على السياح . وزيارات كاتدرائية القديس ماثيو، لحضور عرس نمساوي، أو كونسرت، أو كورال، ومراقبة الدانوب الذي يشطر بودا عن بست . بجسوره المتعددة .

لكن عجيزة إيلونا ارتاحت من جديد على مقعد مشابه لمقعد الفيلاموش الأول، بينما عجز كيسها المشمع عن الاستقرار طويلاً على المقعد المقابل لأن أحد الشيوخ حدّج إيلونا بنظرة شرانية، فأزاحت الكيس جانباً لتسقطه تحت كرسيها، فركاب هذا الخط غالبهم من أهالي ضواحي بودا الجبلية،

وهم ريفيون بنظر أهالي بشت وخصوصاً الذين يسكنون في نهاية الخط، فهؤلاء إذا لم يجلسوا منذ البداية فسوف يعانون من الوقوف متمايلين ذات اليمين، وذات الشمال، حسب التواء سكة الفيلاموش الحديدية في الطريق الجبلية، ففي الزحام تتماوج فيها أجساد البشر مثلما تتماوج أشلاء المواشي عند خروجها معلقة من المسلخ . غير أن إيلونا سعدت على كل حال لأن هذا الخط سيؤخرها في الرجوع، وفي حساباتها أنها لن تتأخر عن الثامنة، أما الآن فلتترك المجال لنفسها لتتمتع بمنظر الغروب عندما يخترق الفيلاموش أشجار الغابات، والشمس تصله من خلالها، وتمنت لو كان الفصل خريفا لجاءت أيام العطل مع ثورها، وقد حمّلته عدة الرسم، لكي يستمتعان بالمناظر، وتمارس هي هوايتها . ورثت لحالها بتأمل، عندما علا استفسار مباغت في ذهنها، وهو : هل ستبقى إلى الخريف تتجول أيام الأسبوع ؟ ولامت نفسها من جديد فلربما يعتدل حال ثورها، أو أن ترحل معه، أو .. و .. أو .. وو .. أو .. أو .

وتاهت في الأو، واللو .. حتى تذكرت مع لو التمني أول مرّة انتبهت فيها إلى ثورها، وكانت وقتها قد خرجت يوم السبت على غير عادتها إلى مقهى الفيرشمارتي الذي لا يجلس فيه غير السياح الأجانب تاركة مكانها الذي حجزته بين الرسامين لتمارس هوايتها في يومي السبت والأحد، جالسة وراء حامل الرسم، تفرز مواهبها في هذه الساحة التي يكثر فيها الرسامون، والسياح الأجانب . ولا تعاني إيلونا من التهافت على أي واحد يقف أمامها لترسمه كما يفعل زملاؤها طوال الأسبوع، لأنهم يعيشون من مهنة الرسم، بينما تمارسها هي كهواية لا غير، فتجلس هنا مهووسة بتداعياتها، ولطالما لا تجذبها الوجوه، أو المباني، أو ما تلتقطه من مشاهد وتشكيلات تراها في عمق شارع فاتسي أوتسا الذي يفضي إلى ساحة الفيرشمارتي، فإن نظرها البعيد يجعلها ترى القادمين من كلية الآداب ".. .ألأجتم..."، أو ساحة الجمهورية، "فلسفادولاجتيير" وإذا اضطرت للتعمق تستخدم إيلونا منظار المسرح المقرّب . غير أنها عندما تمل، وقد خططت بعضاً من الاسكتشات،

تقوم لتضيف مما تتخيله من رسومها، بل وتعتني بتفاصيله بدقة متناهية، وما وجودها بين هؤلاء إلا للتعرف على آخر ما توصلته الهواية من تطور في التكنيك، إضافة إلى أن وجودها هنا هو مجال للتعرف بالناس، والاحتكاك بالآخرين، والتفرج، على من يتفرج بعيداً عن الجو الخانق في بيتها السفلي، وجو عملها المزدحم بروائح اليود، والبنج، والميكروكروم، ومنظر الدماء في المستشفى . بل إن ما يثيرها، ويجذبها كثيراً خارج سجنها، هو مراقبة الناس الذين يتفرجون على الآخرين .. وتلتقط ردود أفعالهم، وتعمد لوضع إشارات، وتخطيطات سريعة لهذه الحالات .. وكم تمنت لو أنها أديبة لكانت سجلت هذه اللحظات باعتناء، ولكي تهرب من التداعيات، تقوم إيلونا بتخطيط لمنظر أمامها بقلم الفحم، وهذه العملية أكثر ما تثير المتفرج عن غيرها لأنه بذلك يمتلك حرية المقارنة بين الأصل والرسم، لأن المتفرج يصعب عليه الوقوف وجهاً لوجه مع الموديل الآدمي ليتفحصه بتلك الحرية، والفضولية، وإذا ما اجتذبت إيلونا جليسًا فإنها تكون في منتهى السعادة، لأن ما يهمها هو أن تمارس التمرين على ما تعلمته . ولو لا خوفها من احتجاج الرسامين في الصف لما استلمت نقودها من السياح، أو على الأقل لخفضت التسعيرة، أو بادلته بليلة زرقاء .

أما وقد ملت هذا اليوم من الجلوس تحت المظلة، والمطر لا ينقطع عن الانهمار، وليس من أمل في سائح .. أو إشعاع لإشعال فتيلة الإبداع، فقد عرجت إيلونا بأدواتها لتحتمي بدفء مقهى فيرشمارتي المسمى على اسم الساحة، والتمثال العائدين لاسم الشاعر المجري الكبير ، لهذا فإن تسعيرة كافة الطلبات أغلى عن غيره من المقاهي في المنطقة .

هاهي إيلونا تنشغل من جديد في مراقبة غرباء المقهى لعلها تستلهم من سحناتهم ما يوحي لها بفكرة لوحة جديدة . بل إن ما جذبها هو سلوك ذلك الغريب الذي لا يوحي بأنه سائح عابر، وإنما بكونه زائر قد يطول وقت مكوثه وذلك ما استوضحته من علاقته بزملائه الذي يبدو أنهم يزورونه في هذا المكان بالذات، وكأنه قد اتخذ من المقهى، والمكان عنواناً دائماً، وثابتاً،

فيأتي بعضهم إلى المقهى، ويذهبون، فمنهم من يحمل كتبًا، وآخر يحمل زهور، وثالث يحمل سلة تسوق، وتتبين إيلونا مما يحملونه، ما مهنتهم، وما يرغبونه، وربما إلى أين يذهبون . أما ما يغلف تلك اللقاءات السريعة التي لا تطول ربما حتى لتناول فنجان قهوة، فهو ذلك الود، والمحبة والحميمية المتبادلة . ولا تدري إيلونا لما ارتاحت لسلوك الغريب مع زملائه عندما يلاقوه، فقد عكس وقتها قلقا، وخجلا مما يدور حوله، وكأنه يخشى الوحدة، ولا يستطيع طلب أي شيء إلا بعدما يحضر أحدهم، حتى نظراته كانت كسيرة، فأحست إيلونا أنه منغلق على نفسه، وكأنه يعيش في دائرة ضيقة من الانتباه، وما أن يأتيه أحد من معارفه حتى تنشرح أساريره، ويتغير كل ما فيه، وكأنه إنسان آخر .

وطاب لإيلونا أن تسرق في يوم الاثنين ساعة زمنية من الدوام لتأتي لعلها تراه في نفس الركن . وقد تفاجأ كلاهما عندما دخلت، وأحست أنه انتبه إليها، فجلست تقرأ في مجلة، وراهنت على ما لديها من خردة لتأكل تسكرادة "حلوة" هنغارية دافئة بالزبيب، استغلت وقت أكلها ببطء في استراق النظر إلى ذلك الغريب، وكأنها عين فاحصة لمخرج سينمائي سيكتشف بطل فلمه الجديد، وأسفت على انتهاء قطعة الحلوة، فاضطرت إلى القيام، وترك المكان، فتصادف خروجها مع وصول أحد أصدقائه . وعادت إلى المستشفى كالمراهقة، وقد احمرت وجنتاها، لأن ذلك الغريب استاء لخروجها، ولربما لدخول صديقه أيضاً . وغابت إيلونا يومين ثم جاءت يوم الخميس فما أن رآها حتى ارتبك، وقام، ثم جلس، ثم التفت حوله، ولم تكن إيلونا متأكدة من ردود أفعاله، فذهبت إلى نفس مكانها، ولكن المكان كان مشغولاً، فقد جلست فيه نمساويتان جاءتا ربما للتسوق من بودابست الرخيصة قياساً إلى فيينا، أو لحضور حفل زفاف تقليدي لنمساوي يحلم بالإمبراطورية الغاربة .

وانقطعت سلسلة تداعيات إيلونا لأنها أحست بأن أحدهم لكزها لتقوم فتنزل في المحطة الأخيرة، وراعها منظر التلال الغربية لبودا، ومنظر الكنيسة المتهدمة على أحد التلال . ونهضت لتنزل كي تبدل العربة، وقد

نسيت للحظة كيس الخضار، وما أن وضعت رجلها السليمة على حافة الدرج حتى صرخت وكأنها فقدت رضيعها، واستدارت لتعود أدراجها، ولحسن حظها أنها كانت الراكبة الأخيرة في الحافلة، وإلا لحدث صخب واحتجاج من الركاب العجائز من انكفائها المفاجئ على الصف النازل . وخافت مرّة ثانية من أن يتحرك سائق الحافلة بها ليبعدها عن مكان تبديل العربة، وعليها أن تقيس المسافة بعرجتها لتعود حاملة الكيس الذي صار أثقل من قبل، ربما لأنها استرخت أكثر من اللازم، وما أن حملت الكيس، ونزلت سحبت أنفاسًا نقية هبت عليها من التلال المزروعة، وقالت في نفسها لهذا لا ينتقل هؤلاء إلى وسط العاصمة، وخصوصاً بست المشبعة بغازات الحافلات، وبخاصة ما تنفذه سيارة التربوت الكريهة .

وتمنت إيلونا أن تمهلها الحافلة العائدة دقائق لكي تستنشق هواء الريف العليل، ولكن حتى ولو تأخرت الحافلة للوقت الذي تمنته فإنها لن تستمتع بالوقوف لأن بالها سوف ينشغل بين باب الحافلة، ووقت صعود السائق في قمرية قيادة الفيلاموش، وقد خرج من كابينة السواقين، رامياً عقب سيجارته الذي يتحيف حتى على آخر نفس فيها .

ولكن لا مفرّ من الاستقرار على المقعد، وربما يكون البديل في فتح زجاج النافذة قليلا قبل التحرّك . فسحبت إيلونا نصف زجاج النافذة القريبة من المقعد لتفتحها، فهب عليها النسيم العليل ليجعل إيلونا تشعر بالارتياح، والنشوة، ومن ثم الخدر فالذهاب بعيداً، ولكن إلى طفولتها هذه المرّة فقد استذكرت إيلونا ماريا اليوم الذي فازت فيه بأحسن لوحة رسمتها بين زملائها، وشدها ما لاقته من عدم انتباه صفها، بل أعلن زملاؤها تبرمهم، وجفاءهم لها، وللمدرسة على هذا الفوز، والإطراء، لاعتقادهم بأن الفوز للحسناوات، وليس للعرجاء إيلونا، ولم يقابلوها حتى ولو بابتسامة ما، غير أن ما تلقته من مدرستها أكد بروزها ونجاحها، مما زاد من شماتة زميلاتها لها، فهربت إيلونا مسرعة إلى البيت، ولم تكن أمها قد رجعت من المعمل، على غير عادتها .. فوجدت زوج أمها الذي لا يفارق البيت، وقد انتفخ

كرشه من قناني البيرة الرديئة، والبالينكه الرخيصة التي يعبها بالتناوب منذ الصباح الباكر، ولا يتمزمز إلا بشرائح شحم الخنزير الرخيصة الثمن . وكم كرهت إيلونا رائحة البيرة، والعرق المسكرتين اللتين تصدران عن زوج أمها، وكذلك هندامه، ولحيته التي تثير اشمئزاز إيلونا المسكينة .

وما أن احتوتها غرفتها الصغيرة، وبدأت تخلع زي المدرسة حتى فوجئت بتلصص عيون زوج أمها التي تلتهمها . فخافت، ولم يكن لديها وقت للتراجع، فقد رجع زوج أمها إلى عادته القديمة، في الاقتراب منها، وليس على إيلونا وقد أقفلت الباب بالمفتاح إلا أن تسرع بالتبديل، وتخرج لحظة انشغاله، لتنتظر أمها أمام باب الشقة، أو أمام البناية في الحديقة القريبة . وقبل أن ترتدي ملابس الرياضة المريحة كان زوج أمها قد اخترق الباب مستخدماً النسخة الثانية من المفتاح، وسقط فوق إيلونا بحمى أنفاسه المحمومة .. مما جعلها تصرخ مستغيثة بالجيران من نافذتها التي تركتها أمها مفتوحة للتهوية . وما هي إلا دقائق حتى دفع الجيران باب الشقة، وكان أحدهم قد اتصل بالشرطة . فأخذوه قبل مجيء الأم . ومن يومها لم تر إيلونا الزوج، فقد أجرت أمها مراسيم الطلاق، خوفاً على ابنتها إيلونا ماريا، وبشهادة الجيران، وسوابق الزوج التي مارسها مع الفتاة .

وتدخل إيلونا العرجاء المطبخ مباشرة بعد أن تحيي ثورها هاتفة، بكلمة مساء الخير يا عزيزي بالمجرية: يواشتيت كيفانوك، لأنها تعرف أنه سوف يجيبها بالجملة التي عانت كثيراً في تعليمه إياها، فيغمغم باختصار : يو اشتت . وسرعان ما يعود لشريط الأغاني التي استهلك وغيره، منذ أن حملهم في مشوار غربته الطويل، فيعلو صوت فريد الأطرش بكلمات أغنية سافر مع السلامة، وترجع لي بالسلامة . بينما تدندن إيلونا باللحن الذي اعتادته في المطبخ، وقد فرغت من وضع الخضراوات في مغطس غسيل الخضراوات، وقامت لتثرم البصل، وتعد الحساء، والسلطة قبل كل شيء، فقد سبق لها أن وضعت لحم البقر "المارها" على النار . وتعمل إيلونا الآن كأنها عشر نساء . خشية أن يأتي ثورها ليطلب منها المساعدة فيفسد عليها

العمل بتفحص كل مادة، والسؤال عن أسعارها بالكيلو، والحبة، والوحدة، والدرزينة، والسلة . وهي متمالكة لقواها، ومتصالبة على أن لا تخدش مشاعره أبداً مهما أحست حتى بتثاقل الناس من لحاجته، وعدم استكانته، واعتبار الآخرين ليس أكثر من وسائل خاصة لأجوبته، أو تلاميذ يدرسهم مادة الشعر . لهذا تحاول أن تطيل وقت مكوثها في المطبخ لأكبر وقت، ولا تنزعج من كثرة التقليب الطبخة حتى تنضج، وإلا فما أن تدخل الصالة لترتاح، أو لتأخذ شيئا منه، حتى يثب الثور عليها لكي يعرض لها سيرته اليومية، وأهمها البضائع التي اشتراها من سوق البولون، الذي غدا عالمه، ولا يعرف غيره في عالم بودابشت الرحب . كان ثورها يدخل عليها المطبخ الضيق في بعض المرات، ولما لم يجد انتباهاً خاصاً بما عرضه على إيلونا زيتونة كما يحلو له أن يسميها أحيانا، فقد أبطل عادة مقاطعتها عن عملها في المطبخ حفاظاً على الود والمحبة العميْقين بينهما .

وما أن يجهز الطعام حتى يكون ثور إيلونا قد جهز المائدة بالطريقة التي تريدها إيلونته الزيتونية . وهو بانتظار العشاء، والغذاء، ومشتاق إلى الحساء، والخواصر . وتتناوب على مائدة العشاء عبارات، وكلمات مجرية مبتسرة، فبعد أن تصب إيلونا لثورها الحساء حتى تقدم له الكاسة، تقول له شهية طيبة "يو إت فاجوت - بفاء ثلاثية النقاط" .. وما أن يحتسي الرشفة الأولى حتى يقول لها شهي، طيب بالمجرية فينوم، فتضحك ماريا وقد تذكرت مهمتها الشاقة عندما علمته التميز بين طيب، وحسن بالمجرية إذ أنه كان يقول كلمة حسن "سيب" لاستحسان الأكل التي تقال لكل شيء باستثناء الأكل، بينما تكون الكلمة المناسبة هي "فينوم" . وكم أجهدت نفسها في تعليمه الفرق بين كلمة عفوا "تشانيوش"، وكلمة معذرة "بوجانوت ـ بجيم ثلاثية النقاط" فلكل منها استعماله ومناسبته . ويعلو صوت ثور ماريا فجأة ليقول لها كلمة ماذا هناك، أو شكو ماكو "هوج فوج" فلا ترد عليه لأن سؤاله هذا ليس له معنى، وإنما هو فقط نوع من التمرن على الجملة التي تعلمها أخيراً لا غير .

وبمجرّد انتهاء طقس العشاء، حتى يهرع ثور إيلونا للملمت الأواني بحماس غير معهود، ويتخذ من مغسلة المطبخ ساحة لغنائه، وهو يطقطق بالصحون، والأواني ليغسلها في جلبة،بينما عينه على إيلونا التي دخلت لتستحم، في المغطس المكشوف، ولا يفكر إلا في جسمها اللدن الدافئ الذي سيطويه تحته في الفراش بعد فترة وجيزة . فيهم بنشاط لإنجاز واجباته، ويفتح الفراش، وقد وضع كأسين من نبيد التوكاي الشهير، لكي يدفئ معدة ماريا، ويسكر رأسها الذي انتشى بكأس البالينكا الشعبي، الذي تناولته مع العشاء، ليرخي كلا الكأسين توترات ماريا الزيتونية من عناء الواجبات اليومية، وقد آن الأوان لإراحة الجسد من جهوده، وتقديم منحة لما عملته .
وفي انتظارها يرخي جبرائيل الستائر، ويضع مؤشر الراديو على المحطة التي تفضلها، وفيها موسيقى هادئة، وأصوات فتيات ملائكيات، من كورلات بارتوك بيلا، التي تأتي مساءً، التي يسمعها خفيفة في الصباح الباكر عندما تستعد إيلونته الزيتونية وهي تتهيأ للخروج إلى العمل . ولم يبق له غير أن يدخل تحت الفراش ليدفئه ببعض من أنفاسه، وقد عمد لفتح أزرار جاكيت بجامته، ليظهر شعر صدره، وقد تناوم لتشعر إيلونته بأنه لا يريد منها غير هذه الواجبات، وهذه أهم خاصية تعلمها في الفتاة الغربية، ولكن ما أن تصل إيلونا إلى السرير مع رائحة البخار، والصابون، وعطرها الخاص حتى ينسى جبرائيل كل التعليمات، ويتصالب على ذاته، خصوصاً، وإنه تعمد الاستلقاء في منتصف السرير لكي يلامس جسدها شعر صدره . وبتراخ مقصود يفتح جبرائيل عينه التي تعمد أن تكون كسلى نصف مغمضة ليقبل الحبيبة إيلونا الجميلة من وجنتها كأنه يحييها تحية المساء الأخوية، وأحس بأنها أفضل ما وجده في الغربة، لعل وجودها عزاء، ودواء لكل آلامه، وعذاباته . وتسترخي إيلونا بين يديه، وكأنها سحابة مأزومة بالماء لا يعوزها سوى شرارة برق حتى ينزل مطرها . وهكذا يبدأ فصل الحب، ويدعوها لتناول كأسها معه، ويستلقيان لكي يسعدا بالهوى، والغذاء الروحي حتى يغفيا على وسادة واحدة .

وبعد ساعة من إغفاءة إيلونا باسترخاء وراحة، ينهض جبرائيل لكي يعدل وضعيتها، ويغطيها، ويقبلها في جبينها، وتتأمل سماحته، وبراءته، كأنها قديسة تتأمل شفيعها . ويذهب إلى زاوية أعدتها له بضوء خافت ليفتح كتاب الشعر الذي ينوي إكماله فيتأمل وجه إيلونته الزيتونية ويكتب . ولكن الكلمات تعييه لكثرة ما كتب من رسائل الاسترحام التي ما أن ينتهي من واحدة، ويرسلها، حتى يجهز الأخرى لكي يجيب على الخطاب لو أجابوه . فقضية الجهاد مع اليو إن تتخذ من وقته في كتابة الرسائل الكثير، حتى صارت سردياته الكثيرة، تتفاعل ضمن أحاديثه مع أصدقائه، خصوصاً، وأنه يستهلها بإطلاع الصديق على مسودة الرسالة التي يكتبها الآن، ومنها يتداعى إلى قضية الجهاد مع يو إن التي تبدأ من حكايته عند ركوب قطار طوروس، مروراً بعلاقته بالمدرّس الذي أسكنه في منزله الذي أجره في الجزائر . هذه القصة التي تطورت يوما بعد يوما في مهجره، لأنه كلما حكاها للغرباء، والمغتربين مثله، نمت فيها أجزاء فيها لم يتوقع الذي سمعها في اليوم السابق أنها تتبع للأحداث الأولى، لذلك ينكفئ السامع على نفسه وهو يسمع جبرائيل يجرجر أطراف القصة للمرة الألف، وسامعوه يخجلون من تذكيره بأنهم قد سمعوا الحكاية أكثر من مرة، ومع هذا فإن اعتذارهم لا يعفيهم من التعرض لجر أردان ستراتهم، أو لكمات من يديه، وهو يمثل انفعالاته في معارضة خصومه، عندما يعتريه الحماس، والانفعال .. فتتعجب إيلونا من اختلاف وضع ثورها بين واقعه اليومي الأليف، وبين وضعه لو استفز، وبخاصة لو استرجع واحدة من قضايا جهاده، ولم تستغرب حدسها حينما أطلقت عليه كنية الثور .

ويتذكر جبرائيل بألم ثوراته في وجوه أصدقائه، وبخاصة حميد المخلص، والبالغ الحميمية، عندما نصحه على عدم الإجابة على الرد السلبي لليو إن .. فغضب هو، وثار، فما دام هو الفاقد لجواز سفره، على الكل أن يتحمله، فكيف بصديق مخلص مثل حميد، لكن جبرائيل ابتئس لطبعه في معاقبة الآخرين من جرّاء همومه، وتحمّيلهم المسؤولية، ومناقشته لهم

بمنطق الأستاذ لتلاميذه، خالقاً جواً من التعامل بين الطالب والمطلوب فالمجيب .. ويتساءل جبرائيل في واحد من أنواع الهموم، وتحت وقع الشحنة التي لا تنتهي من تبادل الرسائل مع جهات عديدة بصدق معاني الأجوبة، وأهدافها، ونوايا أصحابها، وعليه في الغد إطلاع صديقه المحامي مفيد على انفراد . لكن من الواجب أن يحدث أيضاً حميد، وجليل، وسلطان، وعامر، ووسام عن فحوى الرسالة كلا على انفراد وسيوصي كل واحد فيهم بأنه هو الوحيد الذي يعرف السرّ..

ويلقي جبرائيل نظرة عطوفة على إيلونا وهي مستغرقة في النوم، وقد تكسرت الظلال على وجهها الملائكي، وبينما رفعت شعرها إلى فوق لينتشر كالشعاع الذهبي على الوسادة، وجالت في خاطره الأوقات التي يستعين بها لسماع ما كتب لتوه، على الرغم من تأكده بأنها لم تفهم مما يقرأه اللهم غير الأسماء، والأرقام فبعد كتابة الجواب، وفي مراحل المسودات، يكون جبرائيل قد استعان بالمترجم، والناسخ، والطابع، والحقوقي، والسياسي، وقد جاء دورها في الختام لكي يقرأ بصوت عال الرسالة ليختم بها حلقة المستشارين، وكأنه يريد من إيلونا أن تعرف سره دون أن تسأله، وتبقى هي كأنها منشغلة، أو منشاغلة لا تسمع، تتصنع مشاهدة التلفزيون، أو التلهي باللوحة التي ترسمها، أو بأكلة حسوية تطبخها له، رغم ضعف معرفتها بالإنجليزية ..

وفي متون الرسائل تتكرر النداءات، والإرشادات بأنه أحسن من كتب الشعر، وأبلغ من صاغ لغة رسائله، وأصلب إنسان تعرض لنكاية من سلطة، تغربا، ونفيا، وتشريداً، وخراباً لعائلته، فها هو يعيش مغترباً عن ولده المعاق الذي سحبته منه زوجته وقد تركته بتحريض من أهلها الذين بعضهم من أزلام السلطة، فتفبرك لها حجة قانونية لتركه، على كون جبرائيل مصابًا بفصام عصبي، أما المدرسين الذين عمل معهم مغترباً، منهم من يشاكسه، ويندد به وبطبيعته، ومنهم من قام بتحشيد العامة من المتطرفين لرميه بالرصاص، وسرقة جواز سفره .

لهذا يحار جبرائيل في أي شيء يكتب، ويتعب عندما يقرر كتابة الشعر، فتجافيه المعاني، والأبيات فيعود لينام إلى جانب إيلونا الرائعة الجمال، الكاملة المشاعر، وكأنها منحوتة من منحوتات مملكة الحضر، صورها العرب القدامى كإحدى إلهات الشمس التي تشرق أبداً على الحضر الخصبة بلا مغيب، لأن شمس الجمال لا تغرب مثلما تفعل شمس السماء . ولكن النوم هو الآخر يجافي جبرائيل في بعض الليالي، وكأنه متحالف مع خصومه، لهذا يعمد مباشرة للنوم بعد دروس الحب، وبمجرد أن تغفو إيلونا الساحرة على وسادة اللذة ويغطيها، يتظاهر جبرائيل بالجلوس برهة أمام المصباح، ثم يذهب ليغتسل، ومن ثم يعود إلى الفراش فإذا ما تصادف وأن فتحت إيلونا عينها، لتعرف الوقت، يشير لها بأصابع كفه بساعتين أكثر من الوقت الحقيقي .

وفي الصباح تنهض إيلونا على رؤوس أصابعها، وتعود لواجباتها اليومية من جديد . وبعد انتهاء الدوام اليومي تبدل إيلونا خطتها لليوم السابق، فقد يتصادف أن تدخل مكتب البريد الذي يقفل أبوابه في السابعة والنصف، وهناك ستمضي ساعتين لتنتقل من صف دور إلى آخر . وتقضي وقتها متأملة في وجوه الناس تارة، وهي ساهمة حتى أن بعضهم عندما تتفرّس في وجهه بلا ردود أفعال، ينفعل . وكثيراً ما تقترب منها سيدة كانت إيلونا قد أطالت النظر إليها من الدور المجاور، وهي منفعلة، ومستفسرة عن سبب إطالة إيلونا النظر في وجهها، فما غايتها ؟ وتستغرب إيلونا من هذه المرأة، فتقوم من غير جواب لتحويل وجهة نظرها إلى الطرف الآخر من الدور، لتقابل الدور الذي على الجهة الثانية . ولربما كانت تلك المرأة، أو آخرين عندما تفرست في وجوههم إيلونا يستطلعون قسماتها، وردود أفعالها التي تكون في واد، وما يستجيبون إليه في واد آخر . إذ يبدو أنها تقوم بتأشير، ومحاورة الآخر في تخيلاتها الذهنية التي يأخذها السهوم إليها، ولما لا يجد الناس استجابة إيلونا يهملونها ناظرين إلى زملائهم في نفس دورهم المجاور لدور إيلونا . أما إيلونا فإنها وبعد تمرّس خاص قامت بلا تعمد

واضح أن تبدل زاوية نظرها ودرجة تركيزها إلى هيبة من يجتذبها الخارجية في بدايات نوبات سهومها، غير أنها لا تستطيع السيطرة على شدّة انفعالها، وتفرسها في الوجوه فيما بعد . أما أكثر ما تخشاه إيلونا أثناء وقوفها في صف الدور فهو الوصول إلى نهاية الدور، فتكون وجهاً لوجه مع موظفة البريد مباشرة، لأنها لو قامت بتبديل الدور من غير ما سبب فإنها سوف تثير فضول العجائز، ولهذا اصطنعت إيلونا جملا جاهزة للاعتذار أمام الموظفة، تدور حول نسيانها لشيء ما : كالعنوان، أو اسم المرسل إليه، ونوع المغلف، وحجمه، وهكذا مما يتيح لها المبرر للخروج من الدور، والذهاب إلى منصة الكتابة لتبقى هناك تُشاغل نفسها، وهي تنتظر إلى أطول صف دور ستأتي بتثاقل إليه، وهكذا الأمر حتى ينتهي دوام البريد .

ويأخذها سهومها في هذا اليوم إلى وجه العجوز إيغور، وحركات يديه المرتعشة، وهو يفتش معها على قطتها التي تصورت أنها دخلت في شقته المقابلة لشقة والدتها، والعجوز إيغور يتعمد مماطلتها في البحث على القطة التي لم تدخل أصلا إلى شقته، ويشير إلى أنها في المطبخ، أو تحت السرير، كل ذلك لكي يلتصق بإيلونا، ويشم رائحتها الغامرة بتفتح زهرة يانعة . من غير أن يقوم بأي لمس عامد، لكن إيلونا تكون وقتها قد انتبهت لجو غريب لا تستطيع المواصلة معه، خصوصاً، وأنها خبرت بعض هذه الأجواء مما حصل لها مع زوج أمها. فتعتذر بسرعة، ويظل هو يناديها، ويعتذر، ويرجوها للبقاء مدة أطول، فالقطة ما تزال مختبئة في مكان ما في شقته . وتعجب لهذا النوع من الناس، وخاصة أن العجوز إيغور لم يكن ليدنو منها أكثر من اللزوم، لكن ما كان يرهقها، هو الحالة التي يصير إليها من توتر، وسهوم، وحركات لا إرادية يغطي عليها بافتعال حجة لجلب شيء ما للقطة، فيتوارى وراء باب، أو ستار، ويخرج من المكان مأزوما، أو مرتاحا، فإيلونا لم تكن وقتها لتقدّر ماذا يفعله الكبار بينهم، وبين أنفسهم .

وتجفل إيلونا لأن أحدهم في الدور قد صار خلفها، وموظفة شباك البريد تستعجلها، فترتبك، وتخرج من الدور مباشرة إلى الخارج، ولا تعود إلى هذا

البريد ثانية، إلا لو اضطرّت . ومن حسن حظها، أن يكون الوقت مقارب للسابعة، والنصف، فتأخذ طريقها إلى البيت لكي تقوم بواجباتها، ابتداء من دخول المطبخ، وحتى الاستيقاظ باكراً للذهاب إلى العمل .

أما يوم جبرائيل ثور إيلونا فيبدأ عندما يسمع خطواتها في الابتعاد عن باب الدار، فلا يقوى على النوم بعدها، وهو قد فهم مع الأيام سبب إصرار إيلونا على افتعال خفة الحركة، وتحاشيها إصدار أية أصوات، لأن استيقاظه سوف يؤخرها بلا طائل، وتكون إيلونا في الصباح متوترة، مشدودة الأعصاب، لا لشيء إلا لأنها لا تريد أن تظهر أمام زميلاتها بأنها متأخرة، مهملة، ورغم تظاهرها بالهدوء، وضبط النفس إلاّ أن ما يصدر عنها من حركات انفعالية تشي بتوترها، على عكس ما عُرف عنها من هدوء، وطول بال . لهذا أيقن جبرائيل بأن أهم ما عليه في الصباح، هو الركون إلى السرير، والتناوم، كما تعلم عدم مضايقتها في دخول المطبخ، رغم أنه يمكن أن يكون مفيداً في مساعدتها، لكن إيلونا ممن يفضلون تدبير أمورهم بنفسهم، وكل تدخل يؤخر المخططات التي رسمتها في مخيلتها لتنفيذ مشاريعها، وكثيراً ما تحس إيلونا هي الأخرى بتناوم جبرائيل، فلا تكلمه، وكأنه تفاهم اعتاد عليه كلاهما، فقدرت بذلك احترامه لمشاعرها، كما تفعل هي . وقبل أن تخرج تذهب لتطبع قبلة على جبينه، يكون قد انتظرها ثور إيلونا وكأنها واحد من الآمال التي تلهيه في غربته، وهي أيضاً قبلة الإشارة لخروجها النهائي من الدار .

ويقوم جبرائيل إلى الطاولة المعدة، حليب طازج، وبيض، وقطعة لحم مقلية، وخبز هنغاري ممتاز، وإلى جانبه عصير، وكمبوت، وهناك غلاية الشاي التي تعودت إيلونا إعدادها على الطريقة العراقية، لكثرة استعماله لها، وترديده أغنية خدري الشاي خدري. ويشرب جبرائيل عصير الخوخ أولاً، ثم يقوم ببعض التمارين الرياضية، بالسبرنك الذي اشتراه من سوق البولون. ثم يدخل إلى الحمام ليأخذ دوشه الحمام الساخن، فيهدأ بعد أن نظف ما علق بجسمه من إفرازات الليل، وممارسة الحب مع إيلونا اللذيذة . ويعود

من الحمام إلى الصالة، وغرفة النوم، ومناشف الحمام تلف بعض أجزاء من جسمه غير مكترث لأن إيلونا كانت قد فتحت مواسير مياه التدفئة منذ أفاقت، فلا خوف من نزلة برد تخشاه إيلونا على ثورها الحبيب .

وبعد أن يكتفي جبرائيل من سماع الموسيقى الهادئة التي كانت إيلونا قد استمعت إليها قبل خروجها من المنزل، وقد غدت الموسيقى في المذياع الآن أكثر انتعاشاً بعد أن وضح نور الصباح، فبدلاً من الكورالات الملائكية، وموسيقى الفلوت، والأوركسترا الهادئة، تنطلق بعد الثامنة أصوات الفتيات الرقيقات على الأغاني الشعبية الهنغارية التي طور قسما كبيرا منها بارتوك بيلا في سمفونياته . لكن جبرائيل ولا شعورياً يعمد لوضع شريط لواحدة من الأغاني التي يفضلها من المقام المطوّر لناظم الغزالي، وقد شده الحنين إلى واقعه الذي افتقده كثيراً . وباستعجاله لوضع شريط ناظم الغزالي يكون المقطع في الأغنية قد وصل إلى كلمة "وقاروا" .. لأغنية عيرتني بالشيب، وهو وقار، ليتها عيرت بما هو عار . فيقوم ليعيدها مالاً من انتظار الإعادة، بينما يتباهى بسوالفه التي ابيضت قليلاً، ويتحسس آثار قبلات إيلونا الثلاثينية عليها .

ويستعد جبرائيل للخروج بعد قضاء وقت ممتع في طقس الفطور، وغسل كل ما هو موجود من أوان اتسخت، ينظر في كل لحظة إلى ساعته، وكأنه على موعد رسمي للدوام في عمل وظيفي .. ففي الوقت الذي تخاف إيلونا على هروب الوقت منها، يكون هو حريصا على مروره بسرعة، ويتمنى أن تتحرك عقارب الساعة فجأة لكي تستقر على الثامنةوالنصف ، لأن سوق البولون، يفتح أبوابه في التاسعة والنصف، فإذا ما خرج جبرائيل إلى المترو، وانتظر هناك سيكون قد ابتدأ الرحلة في التاسعة، ونصف ساعة في قطار المترو رقم "114" يكون في نفس الحي للسوق،ولا يحتاج إلا إلى عشر دقائق سيراً على الأقدام لكي يدخل السوق، باعتباره أول الزائرين، لأنه لا يفضل الدخول مع الباعة، لأن وجوده معهم لا معنى خاص له .. بينما سيستقبله كل واحد على انفراد أمام كشكه، بشكل مختلف، وسيقضي مع

من يطيل الحديث معه فترة تساعده على التأمل، وتسجية الوقت، فيسلم على من تعرّف عليهم، بلغات مختلفة بين الروسية، والإنجليزية، والمجرية التي لا يعرف من كلها غير نتف، بل جمل مبتورة . بينما يكون هو مصرا بين هذه المفردات المبتورة أن يتكلم بالكلدانية القحة، مبرراً فعله هذا بالقول : بأن مكلميه لا يعرفون غير لغتهم، وهو لا يجيد غير لغة أجداده، فما الفرق في أن يتكلم هذه، أو تلك لأن كلا الطرفين سوف يستعين بالإشارات، لغة التعبير العالمية، فتسير أموره معهم على أحسن حال . متحاشياً الكلام بالعربية خشية أن ينحاز ضده بعض المعبأين ضد العرب، وربما يتصوره الكثير منهم بأنه عبري، لترادف كثير من المفردات بين اللغتين الكلدانية، والعبرية، خصوصاً ممن لا يتقن غير لغة بلاده . فيعمد جبرائيل بالسلام على من يشك في تحيزه بالقول :

جبرائيل : شلامه إليووخن . "السلام عليكم" .

فيجيبه التاجر من إحدى الجنسيات المجاورة للمجر كالروماني، أو البولندي، أو اليوغسلافي، وغير المجاورة في أقصى الشرق مثل الصيني، والفيتنامي، وحتى البنغالي بمجرية مكسرة بالقول . يونا بود كيفانوج "صباح الخير أيها الصديق" . بينما يقلب جبرائيل الأحزمة، والسجاير، والأدوات الكهربائية، وأدوات السيارات، والمعاطف، والملابس الداخلية، والمأكولات، والكريستال .

وعندما ينتهي من ملء الكيس المشمع الذي اشترته له إيلونا، فهو كيس كبير من النايلون المشمع يستعمله كبار السن في تسوقهم الثقيل . يقوم جبرائيل بحمل أغراضه، إلى المترو ثم إلى البيت، وبعد أن يضع الكيس في ركن الصالون يستريح قليلاً على السرير . ثم يقوم ليزور المقهى الذي اعتاد أن يصرف فيه نقوده في السوق السوداء، ومنها ينعطف إلى ركنه في مقهى الفيرشمارتي حيث لقاء الأحباء من أصدقاء الوطن في الغربة . ويأتيه بعضهم ممن يدرسون الدراسات العليا، فيجلسون معه : ثم يأتي حميد الذي عاش معه في الجزائر، وكانت بينهما علاقة حميمة، وهو الذي ساعده على

الوصول إلى المجر، أو بالأحرى أن جبرائيل فكر في المجر فقط لوجود حميد الصديق الأصيل هنا، فقد كانا يتزاوران في الجزائر، وبخاصة أيام الضيق الذي عانى منها جبرائيل، ومنها المحاصرات التي جرت له، واستقر في بيت حميد لفترة قصيرة بعد أن طرد من البيت الذي كان هو قد أجره . هاهو يلتقي حميد اليوم على موعد أسبوعي ثابت، فحميد يسكن في ضواحي بودابست من جهة بودا، وهذا يعني أن عليه أن يبدل أكثر من واسطة نقل بين مترو، وفيلاموش، وترولي . ويعتذر حميد بعد مضي خمس دقائق فقط على جلوسه متذرعاً بضرورة ذهابه قبل موعد خروج الصغار من المدرسة، فذكرى زوجته تتأخر في العمل ولا بد من أحد في البيت لكي يغذيهم، وفي الحقيقة أن أبا عمر يخشى أن تطول جلسته، ويتكلف جبرائيل في استضافته ككل مرّة . وما أن يخرج حميد حتى يتقابل مع جليل، فيدير له ظهره لأنهما متخاصمان حول الحزب، أثر مجادلة حامية بينهما استفزه فيها جليل، وعيره على ارتهانه، وأمور إبداعه لدى الحزب، وكأنه موظف، بينما يمكن لحميد أن يكون روائياً عظيماً لو وفر لنفس الوقت الذي يضيعه في اجتماعات لا طائل وراءها، وفي استلام وتسلم رفاق من خلية إلى أخرى في دوّامة عبثية تدور، ومعها التائهون في هذه الغربة، وليس من حركة تغير إلا الاغتناء بإعادة التعاليم، والقراءات، كقصص جبرائيل، والنقاش حول كل مؤلف يعاد طبعه لآل أليتش وأحفاده . وقد تركهما جبرائيل كما فضلا فلكل منهما وجهة نظره، وقناعته، وهو يتقبل كل هذه الأمور على علاتها لأنها من تداعيات الغربة، ومن ضرائب المنفى القسري، رغم عدم قناعة جبرائيل برأي جليل .. فالفكر والالتزام لا يعلقان على شماعة أخطاء الآخرين، ولكنه يؤيد جليل في جزئية اهتمام المبدع بإبداعه وما ينجزه من إبداع سيكون ميراثا له ولحزبه أيضاً . ويعجب جبرائيل بشخصية جليل في أشياء أخرى، ومنها طريقة لفظه لكلمة كابتشينو التي تعلمها من جليل، فيطلب هو الآخر قهوة الكاباتشينو التي يكرهها، ويحار كيف يشربها جليل من غير الكريمة، لكن جبرائيل يطلبها لأن لفظها يعجبه، وهو اللفظ الوحيد الذي أتقنه في

المشروبات، أما تعلق جليل بالنساء بشكل مدمّر، فلا يـروق لجبرائيل كثيراً رغم أنه مرّ بأوقات حرمان عصيبة حتى التقط بعضهما هو وإيلونا ماريا .

ويدخل جليل محييا جبرائيل بأسلوبه المميز في التغني بالإناث، فـلا تمـر من جانبه نادلة، إلا ويكون قد قرصها في إليتها برقة، فتضحك هذه مفتعلة قفزة جافلة، ربما لتثير من لا ينتبه إليها ممن حطت عينـها عليهم . ولا يبدأ حديث جليل إلى وقد أوصى على قهوته المفضلة من خلطـة الكباتشينو التـي تعرفها النادلات، ليس فيها كريمـة كثيرة، وبقليـل من الكونياك، ومـن دون سكر، وهو السكري، معللا تقليل السكر بتقليل شـهوته للنسـاء، ولكـن عيونـه تتراقص هنا، وهناك للاصطياد، حتى تلك التي تمر وراء زجاج النوافـذ فـي الشارع، فكم من مرة ينهض وهو فـي منتصـف جملـة، ومـن غير اعتذار، ليركض مسرعاً، رغم دهشـة جبرائيل، وبطـئ فهمـه لسبب هـذا الـهروب، وبعد أربع دقائق لا غيرها، يأتي جليل متضاحكاً، فيشير مـن غـير استئذان، بأنه قد ضمن الليلة المتبقية من هذا الأسـبوع بـلا رفيقـة سرير . وكثيرا مـا اقـترح جليـل علـى جـبرائيل أن ينتـهز فرصـة غيـاب إيلونـا الصبـاحي، فيستضيف الفتيات الحسناوات على بالينكا، أو كونياك، وليكن مـا يكـن، لكـن جواب جبرائيل في كل مرّة يشير إلى أنه لم يكن ليستجيب إلى نداءات جليـل حتى قبل أن يتعرف على إيلونا، فكل . أو غالب هؤلاء لسـن سـوى غانيـات في ثياب محبات، يصطدن عابري السـبيل، ممـا يجعـل جليـل يضحـك حتـى تفاجئه أزمة الربو التي يعاني منها من شـدة مـادة المخـدّر التـي رشـها عليـه اللصوص أثناء سرقته، فيختنق، وكأنه سيغمى عليه، لكنـه سـرعان مـا يجـد البخاخ، وبرشة واحدة يعود إلى طبيعته، فيطبطب جبرائيل على ظـهر جليـل مرتبكاً من العيون المتلصصة لزوار المقـهى، وفـي بالـه أن كـل مـا يصيـب جليل هو من سعاره المجنون في ملاحقة النساء، وإذا ما نصحه هو سـرعان ما يصب جليل جام غضبه علىالحزب الذي طرده، وكان سبباً في تيهـه فـي المنافي .

وعندما يزور جبرائيل أحد الأصدقاء يصر على إهداء ما لا لزوم للزائر بهذا الغرض، ومن الإحراج يضطر الزائر قبول بضاعته صاغراً، فيحار هذا هل هي هدية ؟ أم أن فاتورة الشراء سوف تقدم له لاحقاً ؟ لكن جبرائيل لا يبدي أياً من هذه التصرفات، وإنما يبدو أن تصرفه في وهب الهدية لزائره ربما للدلالة على كرمه، أو ربما للتفاخر بالعز الذي يعيشه، وهو ما زال قائماً على قدميه غير محتاج لمعونة أحد، ويتفاخر ثور إيلونا كثيراً بأنه قد اشترى بضائعه تلك بأسعار رخيصة، بل وقد قام أكثر من مرّة بالدعاية لهذا السوق، وصحب معه غيره من المغتربين الفقراء لهذا السوق، لكن تجربة هؤلاء وغيرهم باءت بالفشل لأنهم تعرضوا للابتزاز، لحصولهم على بضائع مقلدة، وأخرى مسروقة .. وفي كثير من المرات يعمد جبرائيل إلى أخذ أي من تعرف عليهم من أصدقاء أصدقائه "حميد، وجليل، وعامر، وسلطان" إلى بيته ليتعرف معه على الحاجيات التي اشتراها، وفي كل مرّة يقدم جبرائيل للصديق ما لا يعجبه رغم احتجاج هذا الصديق وتمنعه . لكن إلحاح جبرائيل هو الذي يخصم المعادلة . وبين كل هذه الأمور يكون جبرائيل قد تعرض لكثير من الحكايات التي سبق أن مارس سردها على من تعرّف عليهم، ومنها قصته مع قسم الدراسات العليا في كلية الآداب، وتقديمه في قسم الدراسات الشرقية، وهو ينتظر الموافقة على فكرة شعر المعلقات قبل الإسلام، وبعده، وفي حقيقة الأمر، أن جبرائيل وإمعاناً في تغير الموضوع، يجنح خياله إلى حكايات وهمية، مثل حكاية الدراسات العليا، ليس إلا لتعميق استماع الصديق له، وجذب انتباهه.

إن ذهاب جبرائيل إلى البيت قبل مجيء إيلونا، بصحبة الصديق أو بغيرها هو لكي يرتب الحاجيات التي اشتراها لهذا اليوم قبل مجيئها، فقد كوم ما اشتراه اليوم في الصالة ـ غرفة النوم . وبعد إلحاح جبرائيل الكثير وهو يرتب كل حاجة، وسرده للحيثيات، في شراء هذه الحاجة، أو تلك، وكيفية شرائها مما يجعل الضيف يمل من الورطة التي وقع فيها، ويهرب متعللاً بموعد فات الصديق أن يذكره لجبرائيل .

ورغم أن إيلونا لا تريد معرفة الكثير من أسرار ثورها، غير أن ما تلقفه من بين نتف الكلام بينه وبين أصدقائه . جعلها كل هذا أن ترسم خريطة عامة لطباع وصفات ثورها، وهي تخجل أن تسأل أحدا منهم، ولا من وسيلة تفاهم لغوية بينها وبينه تمهد لفرش أرضية عامة بينهما، ولكن ما تعرفه أنه يملك نقوداً بعملة صعبة، وحسابا ببنك نمساوي . وتعرف أن جبرائيل لا يبخل عليها أبداً، وفي نهاية كل أسبوع يناولها ما تجود به يده من الفورنتات المجرية، عند موعد تصريفه الأسبوعي في السوق السوداء، بحجة شراء غذاء معين، لأنها تمانع دائماً في مشاركته لها في المصرف اليومي، وتعتبره جزءا من واجباتها تجاهه، تعويضاً لجلوسه كموديل ترسمه، وهذا كفيل فقط أن تسدي له خدمة كهذه بدلاً من النقود، خصوصاً وأن اللوحات كنوز سوف تعتني بها لاحقاً . ولكن جواب جبرائيل يكون بالنفي فهو لا يرضي العيش معها من غير مقابل، بينما تصرّ بعناد على أنها مدينة له، وهكذا بقيت المسألة من غير حل، كل يريد تقديم أقصى ما لديه إلى الآخر، فليس لإيلونا على جبرائيل شيء، بل هي ممتنة له بالكثير، وهي تعرف بهذا أن جبرائيل قد عرف خلفية حياتها هي من خلال المعايشة معها، وربما يكون ما جمعه من أصدقائه عنها، الذين لا يبخلون بإعطائه ما يتيسر لهم من معلومات كثير جداً، ومنهم حميد الودود الذي حاول في يوم من الأيام، ومن دون أية مقدمات، أو استفسار من جانبها أن يحدثها عن جبرائيل، فأنصتت له إيلونا عند بداية تعرفها على جبرائيل فقام حميد بوصف جوانب من شخصية جبرائيل، لكي يقرب إلى إيلونا صورة الرجل الشرقي، وخصوصاً وإن جبرائيل يعتبر أنموذجا غير معتاد، فأشار حميد إلى ضرورة مراعاة إيلونا لجبرائيل عندما تراه ساهماً، فهو حتى عندما يجلس مع أصدقائه يكون مهموماً فيواسوه، ويجيبون على كثرة أسئلته، وإعادته للقصص، ابتداء من سيرة هجرته، وركوبه قطار "طوروس" الذي ركبه عند الحدود مع "قامشلي"، حتى رحلته مع الأمم المتحدة . وأخبر حميد إيلونا بأن لا تستغرب من حالة جبرائيل، وهو يتعرف على كل صديق جديد، فإن مادته

الأولية هي أن يطلع هذا منذ التعارف الأول على مراسلاته ، حول وضعه، مع أهله في أمريكا، أو مشاكله التي علقها في رقبة لجنة حقوق الإنسان، لا لشيء إلا ليأخذ رأيه فيها، رغم أن أيًا من الآراء لم يفده، ولم يستعن به، فجبرائيل يقع في الأخطاء نفسها لأنه يسأل، ولا ينصت للجواب، والرأي ..
وقبل أن تستفسر إيلونا عن معنى ذلك ضرب حميد لها مثالاً بقوله : عندما فقد جبرائيل جواز سفره بدأت معاناته من خلال مطاردة بينه وبين المتطرفين، فحميد هو الوحيد الذي حضر الحالة وعايشها، بحكم وجوده في إحدى ضواحي الجزائر العاصمة، عندما لجأ إليه جبرائيل ليحتمي بداره .. وقضى لديه أسبوعين كان فيها خائفاً، منكمشاً على نفسه، حتى استيقظ حميد في أحد الأيام ولم يجد جبرائيل، فدار العاصمة كلها عليه، ولم يجد له من أثر ، لعل جبرائيل كان خائفاً على مصيره بعد رحيل حميد وعائلته إلى المجر بعد أيام، وسيصبح هو بلا من يلتجأ إليه ففضل أن يذهب في صبيحة انقضاء الأسبوعين ليطرق باب لجنة حقوق الإنسان فرع الجزائر . وهذه الحكاية كان جبرائيل قد كررها كثيراً حتى حفظها الكل، ليس عن طريق قراءتهم لرسائله التي تتضمن الحادثة في كل مرّة بشكل، وإنما عندما يستغل وجود شخص جديد لم يتعرف على مجريات حياة جبرائيل، ويحس جبرائيل من جانبه، بأنه ملزم بأن يبوح للصديق الجديد بحقيقة أمره، إذ ربما يكون قد سمع الحكاية من طرف معاد آخر .. فلماذا لا ينوره بالحقائق، بدلاً من أن يسمعها لاحقاً من غيره، وبصورة مشوهة، فينبري جبرائيل إلى جليل، أو حميد، أو آخر، ويقول له بصوت مسموع، هل عرفت بأنني تلقيت آخر رسالة من اليو إن اليوم، ويبدأ بالسرد، ومن هنا يشدّ الشخص لكي يوقعه في بوتقة الحكاية، ودوّامتها . ويضيف حميد بقوله، ولو أحس جبرائيل بصمت الآخرين، وعدم رغبتهم في المتابعة، فإن لديه نوعا آخر من الرسائل تأتيه من أصدقاء المهجر، هذا يعده بالجنة الأمريكية، وذلك يصف له الجنة السويدية، وذلك بالحب، .. أو المال .. ورابع ببرقة تمهد ... فتختلط على جبرائيل الأمور كأنها أضغاث أحلام، ويطلب النصح من الأصدقاء، ولكثرة

اقتراحاتهم، وتكرراها هي الأخرى، يحملها جبرائيل معه إلى الدار فيضطرب رأسه كل مرّة في اليقظة، والحلم، ويهرب من الفراش إلى سلسلة ألعابه الرياضية، ينفس فيها غيظه . ويرجو حميد إيلونا أن تتحمل جبرائيل، وتعالج ما لديه من معاناة . فجبرائيل شاعر لو عرف استغلال محنته جيداً، ووظفها لكتابة القصائد، لكان أبدع كثيراً، وأصدر عدة دواوين شعرية، هكذا أشار حميد في ختام حديثه لإيلونا، ولم يكن يريد أن يعطيها انطباعه الخاص الذي يتضمن علاقة جبرائيل بالشعر، فشعره لا يعدو عن تعلق الزيت في أواني الطبخ، والخل بالمخلل، لأنها تذكره بغريزة الأكل فقط. وحمد حميد ربه أن إيلونا الحساسة، والفنانة التشكيلية، لو ألمت بلغة جبرائيل لعرفت أنه لا يعدو عن متشاعر .. فهي حتى الآن لا تفهم من كل تأريخه، وذاته وأهله، إلا هذا البيت : رباب ربة البيت... إلى آخره، الذي يظل يلوكه مراراً، كطاحونة تجعجع بلا طحن، يبلع الفراغ ويضخّمه مّرات، ومّرات ..

ويبدو أن إيلونا قد أوغلت في عادة التيه بشكل مدمن، بحيث لم تعد تحسب مسبقاً في أي اتجاه ستسير، وأية واسطة سوف تستخدم، فصارت العادة لا تفارقها ما دامت حالها لم تتغير مع جبرائيل ففي إحدى المرّات تركب إيلونا مترو الأنفاق نيجش "رقم أربعة" وتبقى فيه حتى نهاية المنطقة في إحدى ضواحي بست، حيث محلات التسوق بالجملة التي تدعى شُغر .. فتتسوق، وقد اعترتها نفس حالة ثورها في شراء ما لا تحتاج إليه، وفجأة يبرز لها وجه حميد صديق جبرائيل، وهي تدخل إحدى حالات سهومها لكي يروي لها عن حياة جبرائيل في الجزائر، فيقول حميد : عندما وصل جبرائيل إلى الجزائر، كان قد وقع عقداً بالعمل مع السفارة الجزائرية في أنقرة . ولأول مرّة عندما نزل في الجزائر العاصمة شده منظر البحر، فظل أياما كثيرة يخاف الاقتراب من الساحل لأن الطائرة وهي تهبط به كانت تتوسط المساء والبحر بشكل متوحد، وفي حالة من العدمية الكاملة أحس جبرائيل بفقدان الذات، والانفراد بينه وبين الماء أكثر من السماء، فهاله منظر البحر، والشعور الداخلي الذي انتابه، وخاف جبرائيل أن يسقط في

العدم، ويتلاشى مثل شرارة، أو نيزك، أو مثل النبي يونس حينما سقط من المركب في فم الحوت . ويوماً بعد يوم اعتاد البحر، وتعود على المأكولات البحرية، وصار الآن يشتاق كثيراً للأسماك البحرية، ويجد أن أسماك الدانوب لا نكهة لها مهما أضاف لها ملح الطعام . اما البحر فقد كان ملاذ جبرائيل عندما تيهته الظروف في الجزائر، ولم تكن سواحل البحر في العاصمة غير الملاذ الآمن له في حالات هروبه، فسحره البحر بسعته، ولا نهايته، وزرقته، وعمقه نهاراً، وهيبته، وجلاله ليلاً ..

وما أن انتهت إجراءات الالتحاق بالوظيفة، والدوام، توسط بأحد المدرسين لكي يؤجر له بيتا بثلاث غرف لاستقبال عائلته التي ستلحق به مما أثار استغراب من لم يعرف هذا الخبر، ولأن جبرائيل لم يكن ليشعر بأن العادة لدى المنتدبين أن يضغطوا مصاريفهم إلى أقصى حد كي يوفروا لهم ما يدخرونه عند العودة إلى الوطن، أو الذهاب أبعد لو لم تتيسر ظروف العودة، أو اضطروا للهجرة، والتغرب . وعندما عجز جبرائيل عن إقناع أهل زوجته بالسماح لها بالمجيء . ومن خلال كل الترجيبات بأن يخرج معها محرم، فلم يستجيبوا، مما اضطره، وبتوسل خاص، وبنوع من التراضي بلسان زوجته بأن يرسل ابنه لكي يأتي بالوالدة – زوجته، إذ لربما يقوم ابنه مقام المحرم إياه، ولكن لم يجر أي من هذا، لأن أهل الزوجة ما أن وجدوا أن ابنتهم استقرت مع ولدها، عمدوا إلى إجراءات التطليق، من جانب واحد بعد إقناعها بلا جدوى الهروب وراء رجل معتوه، وملحد . وهكذا وما أن عجز جبرائيل عن استقدام عائلته، استجاب لنداءات أصدقائه، فاضطر لتأجير غرفة لزميله عبد التوّاب الملحاح، سرعان ما امتلأت الغرفة بالزوار، وبعضهم صار مقيماً، فاحتلوا الحمام، والمطبخ بضوضائهم، وصراخهم، كل هذا ولم يستبطن جبرائيل أي دهاء، وحيل، ومخططات أخفاها عبد التوّاب، لأن هذا ما زال يظهر المسكنة حتى الآن، ولكنه يسرع في احتلال المنزل مكانا بعد الآخر، مما يحيط الغرف، ما عدا غرفتي جبرائيل الباقيتين، وفي هذا الحصار، وهذا الاحتلال المتعمّد، لا يجد

جبرائيل حوله من منجد، فليس من مجال للحديث في هذا الموضوع، لأن جبرائيل محاط من كل الجهات بمن يدافع عن الزميل عبد التوّاب، وبمجرد أن يبدأ بلفظة ما عن حال البيت، ترى كل من يسمعه ينبري للدفاع قبل حتى معرفة ما الكلام الذي سيقوله جبرائيل، ولم يكن في حسبانه ما سيطرأ لو اتخذ أي موقف، أو مجرد التفات للأمر من منطلق المشروعية في مزوالة حق من حقوق المغترب المتعاقد، وفي منزله الذي أجره هو بنفسه ضمن عقد موثق في المحاكم . لهذا لم ينم جبرائيل لياليه مفكراً في كيفية إخراج الدخيل، وقد أوصد جبرائيل باب غرفته عليه، كما حرص على إقفال باب الغرفة الثانية، وهو يسمع ضوضاء، وحركة الضيوف، والمقيمين خارج الغرفة : ضحك، وقهقهات، ودعاء، ولعب ورق، ونرد، وصراخ، وسباب . حتى يصاب بالصداع، والدوار، ويغفو مجهدا بعين، والعين الآخرى مرصودة على الباب الذي يخيله بين لحظة، وأخرى يهتز كأن أحدا يريد اعتلاقه . وما من وسيلة، أو معين . وهكذا التجأ جبرائيل إلي .. هكذا تحدث حميد مشيرا إلى خوف جبرائيل من ترك البيت ليلا لكي لا يعود فيرى الدخلاء، وقد كسروا الباب واحتلوا غرفته، أو على الأقل الغرفة الثانية، وعندما يعود جبرائيل إلى البيت متأخرا لا يجد له مكانا في المرور إلى باب غرفته، بل إن الرجال يزاحمونه بلحائهم، وهمهماتهم، وكأنه يدخل بين طابور ناكر، ونكير، أو طابور شرطة سرية لطاغية محتل . وفي هذه الحالة عليه أن يقضي الليل كله من غير معاودة الحمام للاغتسال، وقضاء حاجاته. ولم يكن لجبرائيل غيري أنا، ولكني بعيد عنه، وليس في مهنة قريبة من مهنته . وليس من وسيلة مناسبة في الوصول إلى مدرسة جبرائيل، ومساعدته، بالإضافة إلى أن عقد زوجتي قد انتهى، ونحن على وشك الرحيل إلى المجر بناء على وجود أخت زوجتي هناك . كل هذا يرويه حميد وإيلونا تنسج في مخيلتها أبعاد لوحات تحاول أن تشكلها، وما يتراءى لها من تكوين شخصية جبرائيل، ثورها المحبب . وتسمع حميد يقول : ورغم أنني أعرف المدرس عبد التواب حق المعرفة من الوطن، لكنني فوجئت بموقفه

الرافض على طلباتي المتكررة في أن أقابله في سبيل حل المعضلة التي خلقها هو من جانب واحد، وأتحدث معه بروية حول العرفان، والجميل، ومساعدة أبناء الجلدة الواحدة لبعضهم البعض، إلا أن عبد التواب بدأ بعد هذا التآمر على جبرائيل لإخراجه هو من المنزل، فأظهر تزلفاً لصاحب الدار كلما جاء لتحصيل الإيجار الشهري . وقد انطلق من أهم عقدة، وركيزة، ومفصل هو استغلال الوضع الطائفي لجبرائيل . وبدأت خيوط المؤامرة تتشابك ببعض . خصوصاً، وأن هناك ظواهر تعرض لها وافدون عرب من نفس طوائف الجزائر بحجة تعميمهم للعلمانية، وإفسادهم لعقول الطلبة مثل الجامعية الدكتورة سيما رعامي أستاذة الأدب المقارن، ولو لا غيابها في سفرة أكاديمية إلى أوربا لكانت احترقت مع محتويات شقتها، بين الوثاق والدراسات القيمة . وكذلك ما تعرض له الفنان المسرحي الموهوب لولة عبد القهار .

أما وهذا هو الوضع فإن أمر جبرائيل سيكون أسهل بكثير من وضع هؤلاء، فلاحقه المكفرون، وهرب للاحتماء في البداية إلى بيتي، ثم هرب من بيتي إلى لجنة حقوق الإنسان وإلا لكان في عداد الموتى، أو المفقودين، أو الرهائن، أو من أصحاب العاهات . وبعد مداولات كان من الممكن أن تستقبله أية دولة شمالية غير بلده، ولكن سوء طالعه جعلهم يسفرونه على حسابه، بحجة أن لديه نقودا، وأنه ليس بحاجة للجوء فاختار النمسا مرغماً، لأنها قريبة من المجر، ولكن أمور جبرائيل تعقدت في النمسا أيضاً، وفي غضون شهرين، وجد نفسه في المجر، وكنت قد سبقته إليها بشهر على الأقل، فوجدنا بعضنا من جديد .

وكأن هاجس ركوب متروات الأنفاق، قد صار كالحمى . والهاجس أكثر من النوم والدوام، والرسم ففي إحدى المرّات تركب إيلونا مترو الأنفاق الصغير المبتدئ من ساحة الفيرشمارتي ونزلت في ساحة الأبطال، ولا تدري إيلونا لماذا لم تواصل الرحيل، والتيه مع المترو حتى نهاية الخط، والاستغراق كلية، فقد خرجت، وجلست تتأمل أبطال الأمة الهنغارية، في

تماثيلهم الشامخة هناك، على خيولهم القوية فتتخيل جبرائيل مثل أتيلا الجبار فارسها، الذي طالما كانت ترغبه بأن يكون مثل أتيلا، وهي طفلة تعاني من العرج، والصبيان يعيرونها بعلتها، ويتحاشاها الشبان، فيميلون إلى أبشع واحدة في الصف بينما يتركونها لا لشيء إلا لأنها تعرج قليلاً . وفي طريق عودتها من ساحة الأبطال تتذكر إيلونا آخر مرّة ركبت هي وجبرائيل، وأحد الطلاب الذي استعان بها بجبيرائيل لكي يدله على كلية الدراسات الشرقية عندما كان مقرها في شارع إليزابيث على طريق ساحة الأبطال، وكان عليهم أن يستقلوا نفس المترو من ساحة الفيرشمارتي، فأخذ جبرائيل يتكلم فجأة بالكلدانية ولعلمها بأن الصديق لا يفهم إلا اللغة العربية التي اعتادت على بعض مفرداتها، استغربت من حال جبرائيل الذي كان قد انبرى يتحدث، وكأنه يخاطب نفسه، ولكن بصفة المحدث لسامعه . وعندما نزلوا من المترو وانزووا في ركن جبرائيل المحبب في مقهى الفيرشمارتي . وجدوا سلطان، فحدثه جبرائيل ، وفهمت من ترجمة سلطان الآنية لها بما حصل لثورها في المترو إذ أنه أحس بأنه مراقب، من قبل أحد جلاوزة سفارة بلاده، وأن كلامه سوف يسمع، وينقل عنه مخابراتيا، بين أجهزة السلطة التي خربت علاقاته بزوجته، وأهلها فهربت منه إلى الوطن والدعايات عنه سواء من سفارة السلطة، أو الجهة التي انتمى إليها ، هؤلاء يتهمونه بالهروب، مع المعارضة، والمعارضة تتهمه بالتواطؤ مع السلطة في إرسال زوجته، وأنهما هو وزوجته جاسوسان، وكل ما حصل معهما، وبينهما ليس إلا تمثيلا، وسوف يعودان في وقت قريب متى ما حصل على اللجوء في دولة شمالية .. فتضحك إيلونا، ويضحك معها سلطان، والطالب الجديد من كل تصورات جبرائيل وأشاعوا جواً من المرح أزال خوف جبرائيل إلى حين .

وفي كثير من المرّات يطول الوقت بجبرائيل، وهو في انتظار إيلونا فيقوم بشرب الحساء المتبقي من الليلة السابقة . ثم يمارس إعادة كتابة رسالته المليون للأمم المتحدة، ويظل يقرؤها بصوت عال كأنما يترافع أمام

منصة القضاء التي يتصورها إنسانية جداً، كيف لا ؟ وهي منصة الدفاع عن حقوق الإنسان . كل هذا الوقت يمر .. وهو يعرف أن إيلونا لن تعود قبل السابعة والنصف، وهناك متسع للوقت في القيلولة بوجه خاص التي لا يمكن لجبرائيل أن يفرط بها، فهي ملجأه للأحلام السعيدة . يحلم بمرافعة عن الجزائر، وأخرى عن ضياع جواز السفر، وثالثة عن ذهابه إلى أمريكا .

ومع هذا فالنهار طويل جداً، خصوصاً لو كان جبرائيل من غير شيء يشغله، والحقيقة أن ما يشغله، هو أن يكون هناك منصت له، لكي تتنشط ذاكرته، وينطلق بها من مواقف الغدر، والجبن، والتنكر التي صبت عليه بالذات . ولكنه وهو في وحدته يتوقع في كل لحظة أن يطرق الباب عليه ليزوره أحدهم، حتى ولو كانوا قد زاروه في المقهى لتوهم . ربما حميد، أو عامر، أو مفيد، أو سلطان، أو وسام .. ولهذا يقوم بإعادة ترتيب الأغراض من جديد، ويصنفها، ويرفع بعضها ليستقر مع البعض الآخر فوق الخزائن، ببنما يكون قد علا صوته إما بترديد أغنية، أو حوار بينه وبين أحد من يتخيلهم من أصدقائه، أو أعدائه الذين أوصلوه إلى هذا المصير، ومرّات، يتلو قوائم صرف الحسابات التي جرت منذ جاء إلى بودابست، وأوجهها، ولكنه لا يعلن حتى لنفسه ما تبقى له في البنك مما وفرّه في الجزائر .

وللمذياع دور ثانوي في ساعات النهار لأن جبرائيل يملّ كثرة الندوات، والأخبار التي لا يفهمها، فيستخدم الجهاز كمسجل لإعادة تدوير الأغاني التي جلبها معه : أمل حياتي لأم كلثوم، لأن الأغنية تعيد الأمل مئات المرّات، بل بآلاف آلاف من المرّات . ومع هذا فالوقت بطيء وعليه أن يفعل شيئاً، عليه إذن بلعبة الشطرنج، أو النرد، لكي يلعب مع الآخر في داخل، تماماً كلعبة الحديث أمام المرآة. كل هذه الفعاليات يقوم بها وهو يستذكر حافظته من الشعر العربي القديم، فينطلق في قراءة بعض الأبيات من عنترة، وأخرى من زهير بن أبي سلمى، وامرؤ القيس. يكون قبلها في انتظار أصدقاء لا على التعيين.

وما أن تعود إيلونا حتى تبدأ ورشة العمل في المطبخ لتحضير الأكل، العشاء في التاسعة ثم فعالية الاستحمام، وتليها فعاليات ممارسة الحب، ونوم إيلونا .. ثم فعالية ملّ منها وهي إتمام ما يسميه ديوان شعر، لم يستسغه أحد من أصدقائه حتى الآن .

وفي يوم الجمعة قبل سماع خبر هجرتهما إلى السويد تأملت إيلونا في طريق عودتها من تيهها البودابستي ما كان لها في أول لقاء مع جبرائيل عندما ذهبت إلى المقهى، فجلست في مكانها المعهود، وتبادلت وجبرائيل النظرات، فتذكرت بحدسها الفني فجأة أن جبرائيل كان يحوم حولها، وينظر إلى الرسوم التي أنجزتها من غير أن ينبس بكلمة، فتصورته أخرس، وكئيبا، لكنه لم يجذبها وقتها، ولم تنتبه له، لكنها عرفت فيما بعد أن ما كان يجذبه إلى الرسم، والوقوف متفرجاً على الرسامين، أنه كان يبحث عن أحد ينقش له اسمه، وجنسيته كوشم على جسده . ولم يستطع التعبير عن هذه الفكرة حتى بعد أن تعارفا بوقت طويل، عندما شاهدا أحد الهيبيس الموشومين .. كان جبرائيل كما ذكر لها يخجل من الفكرة لكي لا يساء فهمه من قبل أقرب المقربين له، حتى ولو كان حميد، أو جليل، أما الآن فلا حاجة له بالنقوش، والوشم ما دامت إيلونا بجانبه .

وفي المقهى ذاته كان لا بد من أن يبادرْ أحدهما بالتقرب إلى الآخر.. وشدّ إيلونا إلى المبادرة، والتعارف عدا الانتباه، والرغبة العاطفية، والإعجاب أن لهذا الغريب ملامح تحتاج إلى دراسة في الرسم، خصوصاً وأنه يمرّ في حالات متعددة، تنعكس على تعابير وجهه .. سهوم .. ثم خجل .. ثم استحياء .. ثم تورد خدود .. ثم حديث عادي، أو ودي .. فغضب .. فهياج . ثم يكون بشوشا رائقا وسمحا . كل هذا يمر ربما خلال ربع، أو نصف ساعة.

قامت إيلونا أخيراً من مكانها، واتجهت إلى طاولة جبرائيل، وفي ذهنها أنه لا يتكلم أية لغة، نتيجة لملاحظاتها السابقة، فأشارت له بطلب الجلوس، فنهض باستحياء ممزوج بالبشاشة، وأجلسها بلطف، وهو يتلفت، ومن حسن

حظهما أن أحداً من أصدقائه لم يكن قد وصل بعد، وعليهما أن يسرعا في التعارف، والانتقال إلى مكان آخر بعيداً عن كل العيون . هذا ما اعتمل في داخل كل منهما .. ولم تحتج إيلونا إلى وقت طويل أن توضّح له بأنها رسامة، وتريد رسمه فدعته للذهاب إلى الساحة لترسمه، ومن ثم إلى البيت . وبعد اللقاء الأول اتفقا على أن يجلس جبرائيل أمامها ليكون موديلها الدائمي، ولقد تحقق لها ما كانت تصبو إليه وتحقق له ما يحتاجه، ولما أصبحا في فراشهما أفاقا كعروسين لأن جبرائيل عرف إيلونا لم تعاشر رجلا قبل، وهو الآن عريس في يوم صبحيته بحق، فقام ليقبلها من جبينها، ورغم هذا كله، فقد عجز جبرائيل عن إفهامها برغبته في أن ينقش اسمه على جلده .

وابتدأت إيلونا بدراسة وجهه، ثم بملابسه، ثم بعد أن مارسا الحب بدأت ترسم تضاريس جسده، ودرست عضلاته بتشريحها الكامل، حتى قررا أن ينتقلا نهائياً إلى بيتها، وبعد أن عرفته على سوق البولون، وكثرة شرائه لكثير من الملابس، اقترحت عليه الاستعانة بملابس سوق البولون التي يجلبها، لكي يلبسها في كل مرّة، ويغدو في زي مخالف، ومنها أزياء البولون، وأزياء الغجر، وأزياء البدو، وأزياء العثمانيين، والصيني، والفيتنامي .. وهكذا استثمرا الحب من جهة، وعادات جبرائيل في شراء ما لا لزوم له من جهة ثانية .

كانت الملابس التي يلبسها أزياء يتنكر بها، عليه أن يرى في نهاية الأسبوع لوحة مكتملة تعرضها إيلونا في السوق للبيع، وأراد جبرائيل أن يشير إليها بأن تغير ملامحه لكي لا يتعرف عليه أحد ممن يعرفونه من غير أصدقائه الحميمين، فتوسط بحميد، مبعداً جليل عن التوسط لكي لا يفسد الجو، ويسطو ربما على إيلونا العطشى من حرمان طويل . ولكن الجلوس في البيت بات مملاً فلماذا لا ترسمه مع الطبيعة خارج المنزل، في الريف، على بحيرة فلانسيا القريبة من بودابست، وعلى جبل هاروش هدج "جبل القمم الثلاث" . أو بين الأشجار .

وقد تعود جبرائيل على التحرر من الملابس في البيت، خصوصا أثناء جلوسه كموديل، مما يتيح الفرصة لإيلونا من أن تتفرس في ثنايا جسده اللدن كقماش ناصع لم تؤثر فيه حتى السمنة ناعم الملس، متين البنيان . وغالبا ما تحب إيلونا أن ترسم الخطوط العامة للجسد، ومن بعدها تعمد لملء التفاصيل. وتبدأ بالرأس فيسحرها الشعر الكستنائي فتقوم في كل مرة لتعبث في تصفيفه . تلك التصفيفة التي يتعب جبرائيل في ترتيبها أمام المرآة، فتعيد إيلونا ترتيبها بعبثية أمام المرآة بدورها . وعندما تملت العينان لمع بريقهما بعمق رهيب، فعذبها ما تخفيه هاتان العينان من ألق، وقلق، وتأزم وتمنت أن تغور في أعماق تلك النفس التي لم تدخلها من خلال الكلام الجميل . أما الأكف ناعمة ملساء، والصدر رائع الشعر مثل حقل ربيعي ثم البطن، ثم قطعة حمراء وضعتها أسفل البطن تحاشياً من الوقوع في الهوى، وهي تمارس هوايتها، ولكنها لا تخفي فضولا في كل مرة من اختلاس نظرة للقطعة الحمراء وحركة منتظمة تحتها، كأنها نبضات قلب متسارعة .

واتفقا على إقامة معرض للرسوم في صور متسلسلة بعنوان ممثل من الشرق في أدوار البطولة المنهزمة، يكتب جبرائيل تحت كل لوحة بيتا شعريا بالحروف العربية، ويترجمها شاندور إيفاني إلى المجرية، أستاذ جبرائيل المرشح للدراسات العليا، وتكون بذلك ضربة الموسم .

ويوماً بعد يوم تتعلق إيلونا العرجاء بمحبوبها،وتزول عنها علامات التعّجب عندما تراه منهمكا وراء موجات الأثير ليتابع أخبار الوطن في إذاعاته المتعددة، فهنا أغنية سمعتها على لسانه، وفي شريط تسجيل، تكرر مثل جملة "الزيت، والخل" حفظت منها "أنا وأنت"، و"يم العباية"، أو "أنساك داكلام"، أو "يامسافر"، أو "زوروني كل سنة مّرة ..

ويقوم جبرائيل في كثير من المرات عن الطاولة فيمسك آلة العود الذي رافقه مع الأشرطة، وقام الأستاذان وسام، وعامر بتدريبه عليه، لكنه لم يلتزم بما علماه وبخاصة عدم إيمانه بالنوتة، فيدندن على أوتار العود المتراخية من شدة العزف، وإهمال شدها، فتخرج الأصوات كالخربشات

الناشزة، لأضلاف حيوان يحفر له غارا فـي صخر، ولا تقترب الموسـيقى حـتى من أبجدية التلوين، ويبدو وهو يمسك العود كأنه مفـترس يحـمل فخذ عجل يستعد لأكله .

وما أن يأتي يوم الاثنين بعد أن قضيا يومين على بحيرة فلانسيا القريبـة من بودا، وبعد القيلولة التي يقضيها جبرائيل بانتظار إيلونا يطرق البـاب، ويعجب جبرائيل من سرعة عودة إيلونا، ومن طرقها إذ لا بد أن يكون هناك عائق يجعلها تخرج المفتاح لتفتح الباب، وهي علـى رؤوس أصابعـها خشـية أن توقظه، ولكن جبرائيل ما أن فتح الباب، حتى فوجئ بساعي البريد يناوله رسالة عرف من غلافها أنها من اليو إن . فما أن أصبح لوحده حتى فتحـها، وطار من الفرح لأنهم وافقوا أخيراً على سـحبه إلـى دولـة شمالية، شـمالية، عليا، سوف تمنحه أخيراً جواز سفر يخلصـه من كل المتـاعب . فطـوى الرسالة وصار يحسب الأيام التي ستغيب إيلونا عنه حتى يجتمع شملهما مـن جديد بعد أن يجري لها معاملـة جمـع الشـمل، وعليـه الآن قبل أن يفعل أي شيء أن يحرك إجراءات زفافهما الذي أجله، بل جمدّه لكي يقدمه هدية هامة لإيلونته الوردية . فقام، وخرج إلى المقـهى لكـي يلاقـي المحـامي مفيد لكـي يستعجل الاجراءت، على جليل أن يقوم بحجـز قاعـة للمناسـبة طالباً كتمـان السرّ على إيلونا حتى اليوم الموعود .

المؤلف في سطور

- **دكتور فاروق أوهان .**
- دكتوراة في علم اجتماع المسرح / عضو الهيئة العالمية لنقاد المسرح .
- مؤلفاته :

* **صدر منها :**

١ - **المقامة الفجرية** - مسرحية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ .

٢ - **مقلاع جالوت في ساعة الصفر** - مسرحية - دار مكتبة الحياة ، ومؤسسة الخليل ١٩٩٧ .

٣ - **أغاني الحب والعمل** - مسرحية - دار مكتبة الحياة ، ومؤسسة الخليل .

٤ - **الحصان والثلج** - قصص - دار مكتبة الحياة ، ومؤسسة الخليل ١٩٩٧ .

٥ - **هديل على الحدود** - قصص - دار سينا - مصر ١٩٩٧ .

٦ - **سيرة الفارس والعنقاء** - مسرحية - الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٨ .

٧ - **رسائل حب من نيرغال** - قصص قصيرة جداً - دار الانتشار ، بيروت ، لبنان ١٩٩٩ .

٨ - **آفاق تطويع التراث العربي للمسرح** - وزارة الإعلام والثقافة - الإمارات ١٩٩٩ .

٩ - **من الاحتفال الشعبي إلى المسرح** - ندوة الثقافة والعلوم - دبي - الإمارات ١٩٩٩ .

١٠ - **البحر يغرق** - قصص - مركز الحضارة العربية - القاهرة ٢٠٠٠ .

١١ - **جنيّة الشفق** - قصص شاعرية قصيرة جداً - مركز الحضارة العربية- القاهرة ٢٠٠٠ .

* **تحت الطبع :**

١ - هيا نحلم - دراسة في التمثيل والإخراج المسرحيين أمام الجمهور .

٢ - تحرير المسرح العربي من المفهوم الأوروبي - دراسة .

٣ - الحكمة والبيان على لسان الحيوان - بحث .

٤ - درامية السيرة الدينية - بحث .

٥ - ملحمة هبوط وصعود أنكيدو - مسرحية .

٦ - مراثي قرية الرأس - رواية .

٧ - أبعاد توظيف التراث والمسرح (الملحمة ، المقامة ، السيرة) .

٨ - حكاية موت طائر في حكاية ومسرحية .

٩ - الصولجان والقلب : نقد مسرحي .

١٠ - احتمالات - قصص قصيرة جداً في قالب شاعري تماثلي .

* **المخطوطات :**

١ - تدريب الممثل في المسرح العربي .

٢ - حوار في مستقبل المسرح العربي .

٣ - المهرجانات المسرحية .

٤ - أعلام مسرحية عربية

٥ - المسرح بين حقبتين عالميًّا وعربيًّا .

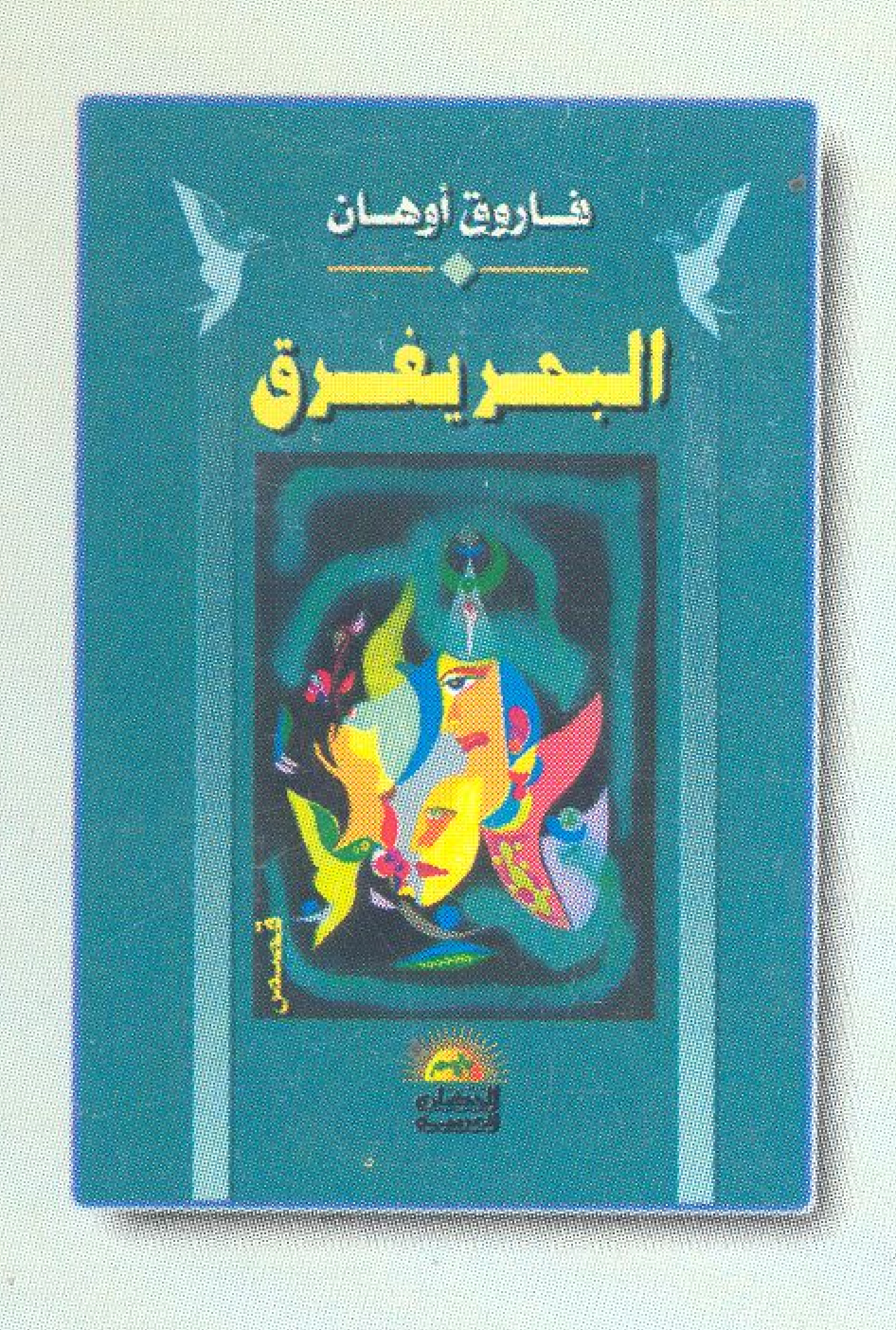
الفهرس

من قائمة الإصدارات الأدبية

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين
الثلاثية الروائية	د. أحمد إبراهيم الفقيه
الهاجس	أحمد بدران
ظل باب	أحمد محمد حميدة
وقائع غرق السفينة	إدريس علي
صخور السماء	إدوار الخراط
حذاء السيد المنسى	أشرف العوضي
لا أحد يحبك	أماني فهمي
همس العاشقين	أمين بكير
الخيول الشاردة	بهي الدين عوض
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	جمال التلاوي
المتعبون	جمعة محمد جمعة
دموع إيزيس	حسني لبيب
بالقلوب	د. حمدي عودة
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا ونورا وماعت	رفقي بدوي
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
حبيبي يا ناس	سليمان كابو
ظل الحجرة	سمير الفيل
أيام هند	سيد الوكيل
سفر الموت	شاطبي يوسف ميخائيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
الخرابة	د.عبد الرحيم صديق
الغربان لا تختفي أبداً	عبد الفتاح صبري
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
صعيدي صَح	د. عزة عزت
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
سراديب	عفاف السيد
إينارو	د. علي فهمي خشيم
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبة
جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جداً)	د. فاروق أوهان
شفيقة .. وسرها الباتع	فؤاد قنديل
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
الفتيت المبعثر	محسن الرملي
الميناء الشرقية	محمد جبريل
الخرابة ٢٠٠٠	محمد الشرقاوي
كوميديا الانسجام	محمد بركة
طوفان النار	محمد حافظ صالح
أشياء لا تموت	محمد صفوت
إلحاح	محمد عبد السلام العمري
حبال من رمل	محمد علي سعد
الرقص في أكفان الموتى	محمد فتحي
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحياة الذروة	د. محمد نعيم شريف
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
اختزال في المسافة والسفر	محمود الورواري
فوق لهيب الشموع	ممدوح القديري
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
دم الأبنوس	ناجي الشكري
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
زهرة الصيف "قصص يابانية"	ترجمة : نجاح سفر
الدائرة	د. نجدي إبراهيم
حكايات مصرية	نهلة السوسو
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
أيام زمان .. أين أنت ؟	د. هشام قاسم

إصداراتنا تشمل : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - أدبية (رواية ، قصة ، شعر ، مسرح) - مترجمة - علمية - جامعية - دراسات - معارف عامة - تراث - أطفال ، خدمات إعلامية وثقافية .

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز



وكم كان يعطف على ذلك الانكسار الذى يصيب من يخرج من مكتب البوليس السرى وقد طوى نسخة من ورقة البراءة فى جيبه الباطنى فى قلبه، وعقله، ومخيلته، وذاكرته، وأحلامه، يحاول فى كل حلم محوها، وكشط الكلمات. وكم سمع عن كثيرين ماتوا همّا وراء البراءة، وكم انتحروا أمام بيوت البوليس السرى.. وحتى اليوم وبعد أن قابل الحجى عزّة الذى كان قد أشهر البراءة العلنية، ورغم أنه يدعى الأن بطولة إنقاذه لآلاف الرؤوس التى كانت ستسقط من غير ذنب، لولا أن فداهم هو بنفسه من غير الموت هذه المرّة، وإنما بالتخلى عن كل شئ، فقد وجد لطفى داخل عينى عزّة ذلك الهاجس الذى لا يفارق كل المتبرئين وقد تضخمت هنا بالذات لدى الرفيق عزّة، يحاول أن يدافع بها عن نفسه بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود من الزمن بقوله المتكرر :

عزّة : لم أتبرأ من فكرى، ومن وطنى، ولكننى تبرأت من ممارسة العمل السياسى.

